

نشأة التعليم العربى الحديث وتطوره

التعليم القائم حتى نهاية القرن الثامن عشر :

نظرا لأن التوجه الثقافى العام فى عموم البلدان العربية يدور فى أغلب الأحوال حول العقيدة الدينية الإسلامية برزت مؤسستان تخصصتا فى جملة علوم ودراسات تتسم بهذه النزعة ، ألا وهما : الكتاب ، والمسجد ، فضلا عن عدد آخر من مؤسسات تعليمية اختلفت عنهما بعض الشيء بحكم وظيفتها ، وإن لم تفارقهما فى التوجه .

فبالنسبة للكتاب نجد أنه كان هو الأكثر انتشارا فى مختلف البلدان العربية ، حتى يصعب أن تخلو منه قرية أو مدينة أو نجع ، وذلك بحكم ما كان عليه من بساطة شديدة إذ كان لا يزيد فى مساحته عن غرفة أو " دكان " ، أو ضعف هذا فى بعض الأحوال . وكان يكفى أن يكون به معلم واحد ، قد يعاونه واحد ، سمي فى بعض البلدان " بالعرف " ، لا يشترط فيهما إلا أن يكونا من حفظة القرآن ، ولم يكن يكلف طالب العلم فيه إلا شيئا رمزيا . ومحتوى التعليم المشترك فى كل البلدان هو حفظ القرآن الكريم (١) .

والكتاب بالصورة التى كان عليها ، يعدّ تعليمًا " شعبيا " من الدرجة الأولى ، فضلا عن ديموقراطيته ، فلم يكن هناك ما يصد طفلا عن أن يلتحق به ، وانتشاره فى مختلف أنحاء البلاد ، يسر الالتحاق به ، وكذلك كلفته الرمزية . يضاف إلى هذا وذاك أن الطفل كان يمكنه الالتحاق بالكتاب الذى يريده له أبواه ، وأن يتركه وقتما يريد ، يلتحق به فى سن الخامسة ، أو السابعة ، ليظل به حتى العاشرة أو بعدها ، أو قبلها ، حسب مقدرته على إتمام حفظ القرآن (٢)

وكان يغلب على طريقة التعليم التلقين ، إما بطريقة فردية تقوم على أن يتولى كل طفل أمر نفسه فى عملية الحفظ ، ويقوم فقيه الكتاب " بالتسميع " له ،

وهذا هو الأكثر شيوعاً ، خاصة وأن الأطفال كانوا مختلفي نقطة البداية ، فهذا بادئ من أول جزء من القرآن ، وذلك من الثاني ، والآخر من جزء ثالث أو رابع ٠٠٠ وهكذا. وإما بطريقة جماعية ، فيقرأ الفقيه الآية ، ويردد الأطفال وراءه النص نفسه ، وهذه الطريقة كانت أقل شيوعاً (٣) .

وفى السودان سُمي الكتاب " بالخلوة " ، وكانت الخلوى يدرس فيها أساس القرآن ، وقد يصبح مبادئ الحساب والكتابة ، وهى إما أن ينشئها رجل من حفظة القرآن فى بيته ، يدرس فيها بنفسه ، وينفق عليها من عنده لوجه الله تعالى ، وإما أن ينشئها رجل من أهل اليسار فى بيته فيؤجر فقيها براتب معلوم ، وينفق عليه وعلى تلاميذه ، وإما أن يشترك فى إنشائها والإنفاق عليها أهل البلدة جميعاً فيجعلون المدرسة إذ ذاك فى غرفة تلتصق بالجامع (٤) .

وعلى الرغم من أن التعليم وفقاً للنمط الأوروبى الحديث قد بدأ يعرف طريقه إلى عدد من البلدان العربية ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، إلا أن تعليم الكتاتيب ظل قائماً بعد ذلك إلى ما يقرب من قرنين من الزمان ، بل إنه كان يمثل الشكل الوحيد للتعليم فى البلدان التى تأخر قيام التعليم الحديث فيها ، وعلى سبيل المثال ، نجد فى الكويت الكتاب الذى سُمى بالمطوع ، ومعلمه يسمى مطوعاً (٥) . ويعتبر كتاب " الملا قاسم " أول كتاب من نوعه فى الكويت ، فقد افتتحه عام ١٨٨٧ عندما قدم إلى الكويت برفقة أخيه الملا عابدين (٦) وكان التلاميذ فى ليبيا ينتظمون فى الكتاتيب طالما توافر المعلم أو الفقيه الذى كان بدوره يعمل على جمع مجموعة من الأطفال ، وكل من هؤلاء الصبية يحضر معه لوحاً من الإربواز حيث يسجلون عليها آيات من القرآن الكريم ، وكانوا يجلسون على حصير مفروش على الأرض ، وبإشارة من الفقيه - الذى يحفظ النظام بعضاً طويلة من الجريد التى يستخدمها غالباً - يردد الأطفال بصورة جماعية مقاطع من القرآن الكريم (٧) وكانت المساجد ، إضافة

إلى دورها باعتبارها أماكن عبادة وأداء الصلوات ، تفتح أبوابها كذلك باعتبارها " دور علم " ، خاصة إذا كانت من المساجد الكبرى .

وهنا نجد الجامع الأزهر فى مصر أشهر هذه المساجد التى قامت بدور تعليمى ملحوظ منذ أن أتم الفاطميون بناءه فى السابع من رمضان سنة ٣٦١هـ (٢٣من يونيو سنة ٩٧٢ م) . وكانت حركة التعليم فيه تتأثر تأثرا بالغا بحركة الحكم والسياسة ، بل إنه كان يقوم فى أحيان متعددة بدور سياسى ملحوظ ، وخاصة فى تلك الفترة الأخيرة من العهد العثمانى ، عندما كانت الأحوال تضيق بالناس مما كان يقع عليهم من ظلم .

ومن الغريب أنه فى الوقت الذى بلغ الذروة فيه فى دوره السياسى فى أواخر القرن الثامن عشر ، نجد أن التعليم فيه سار إلى جمود حيث كان باب الاجتهاد قد أغلق ، ورضى العلماء بالتقليد ، وعكفوا على كتب لا روح فيها ، وجعلوا طرق التفكير الصحيحة ، وطرق البحث القويمة ، وما جد فى الحياة من علوم ، وشغل العلماء أنفسهم بالفروض والاحتمالات الوهمية التى لا تقع ، وراحوا يبحثون لها عن حلول ، وانصرف الأزهر عن العلوم العقلية ولم يبق إلا ذلك البصيص الشاحب من الدراسات الدينية واللغوية (٨)

وعلى الرغم من وجود الأزهر فى مصر إلا أنه كان يعج بفئات متعددة من بلدان عربية وإسلامية شتى ، ومن التقاليد الراسخة التى ظلت لصيقة بالتاريخ العلمى والاجتماعى للأزهر كجامعة ، أنه أفرد لكل طائفة من طلابه ، وكان يطلق عليهم المجاورون ، " رواقا " يقيمون فيه إقامة دائمة بالمجان طوال السنوات التى يقضيها كل منهم فى تحصيل العلم فى رحابه ، ويوزع بدون مقابل نقدى ، يوما بعد يوم ، وفق نظام رتيب ، الجراية ، وهى عدد معين من أرغفة الخبز ، كما يصرف لأعداد منهم مرتبات نقدية فى أول كل شهر هجرى ، ويقدم لطلبة جميع الأروقة الأطعمة والعطايا فى المناسبات الدينية ، كشهر رمضان ، والعيدى ، والمولد النبوى ، وما إلى ذلك (٩)

ونتيجة للشهرة والسمعة العلمية الطيبة التى كان يتمتع بها الأزهر أصبحت مساجد القاهرة ومدارسها الأخرى تعتبر وكأنها فروع له ، حقيقة كان لهذه المساجد والمدارس أوقافها الخاصة ، ولكن كانت القاعدة أن وظائف التدريس بها يتولاها شيوخ من الأزهر .

أما فى الشام ، فقد كان التعليم أقل مركزية ، فإلى جانب المركزين الرئيسيين حلب ودمشق ، كانت توجد مساجد بمثابة مدارس إقليمية فى مدن أخرى ، خاصة فى بيت المقدس ونابلس (١٠) . وإلى جانب المساجد الجامعة فى دمشق وحلب التى كانت تعتبر المراكز الكبرى للدراسات الدينية ، كان يوجد فى المدينتين عدد من المدارس والمساجد التعليمية ، بعضها متصل بالمسجد الجامع معتمد عليه ، والبعض الآخر منفصل عنه .

وكان طلاب العلم فى مصر والشام لا يزالون فى العصر العثمانى حريصين على التقليد القديم الطيب ، وهو الرحلة فى طلب العلم والاستزادة من المعرفة ، وفى التراجم التى يزدحم بها كتابا " المرادى " - سلك الدرر فى أعيان القرن الثامن عشر - و " الجبرتى " أمثلة كثيرة للعلماء الذين كانوا يرحلون إلى مدن مصر المختلفة وخاصة دمياط والإسكندرية وطنطا وأسيوط ، أو إلى دمشق وبيت المقدس ، أو إلى المدينتين الشريفتين مكة والمدينة (١١) .

وكان المسجد الحرام بمكة المكرمة بطبيعة الحال أحد المراكز التعليمية المهمة . وإذا كنا نجد فى القرن الثامن الهجرى بعض الأمراء المسلمين ، وبعض التجار الموسرين قد قرروا دروسا فى هذا المسجد ، وكانوا يدفعون لمن يقوم بتدريسها أجرا معلوما (١٢) ، فإننا نجد فى أواخر العهد العثمانى تغييرا على منح الإجازات العلمية ، فأصبح على كل من يرغب فى التدريس بالمسجد الحرام أن يقدم طلبا لقاضى القضاة ، وفى أول العام الهجرى يعقد قاضى القضاة مجلسا علميا برئاسته يحضره كل من مفتى الشافعية ومفتى المالكية ومفتى الحنابلة ، ويمتحن الطالب كل يوم فى درس أو درسين ، فإذا نجح

أعطيت له شهادة التدريس بالمسجد الحرام ، ثم يرفع اسمه للحاكم ليعطيه من
الحنطة التى ترد سابقا لأهل الحرمين الشريفين (١٣)

وكان يطلق على المسجد فى السودان ، وفى بلدان أخرى كذلك، اسم
الزاوية ، إذا كان فسيحا ، فإذا خصصت فيه حجرة لصلاة الجمعة سمي جامعاً
، فإذا كان فيه كتاب لتعليم القرآن سموى خلوة ، وهكذا تختلط هذه الأسماء
الأربعة فى بعض الأحيان (١٤) .

على أن الطريقة التى آثرها العرب فى السودان (كما فى سائر البلدان)
أن تجعل الدراسة فى المسجد أرقى مستوى من الدراسة فى الخلوة ، فجهدوا أن
يفصلوا بين المرحلة الأولية التى كان مكانها فى العادة الخلوة ، وبين المرحلة
العليا التى كان مقرها فى المسجد ، وربما أطلقوا على تلاميذ الخلوة (فقراء
القرآن) ، وتلاميذ المسجد (فقراء العلم) .

وعرفت بلدان عربية عددا من المدارس ، نذكر منها مما وجد فى العهد
العثمانى بمكة المكرمة ، ظلت قائمة حتى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى ،
منها (١٥) :

- مدرسة الوزير محمد باشا ، تقع فى سويقة ، كانت فى الأصل بيمارستانا
ثم قلبت مدرسة .
- مدرسة السلطان محمود ، تقع فى سوق الليل .
- المدرسة الداودية ، تقع بالقرب من باب العمرة .

وكانت بوادى شمال إفريقيا ووسطها ، على سكونها وهدوئها ، تضطرب
بالوان من الحركات الدينية والاقتصادية ، وكانت الزوايا الدينية التى يقوم
عليها أصحاب الطرق الصوفية هى أهم مراكز هذه الحركات ، إذ كانت
مراكز الدعوة إلى الإسلام والتمسك بمبادئه ، وكانت الزوايا التى كانت بمثابة
مراكز ثقافية تقع فى الغالب على طرق التجارة التى تربط شمال إفريقيا
بشرقها ووسطها ، كما كانت تربط غرب القارة بشرقها (١٦) .

وكانت الزوايا دور تعليم وضيافة وعبادة وعمل وأماكن نسخ القرآن الكريم ، ولمختلف المخطوطات العربية . وكان تعليم الزوايا يعتبر أعلى مستوى فى الدرجة من تعليم الكتاتيب ويمكن موازاته بالتعليم الثانوى الحالى ، وكان خريجو الزوايا يتقلدون وظائف ويقومون بأعمال التبشير والدعوة الإسلامية فى الجبال والصحارى ، ويقومون أيضا بالتعليم فى الكتاتيب ويباشرون الوعظ والإرشاد فى المساجد وبين رجال القبائل (١٧) .

وكان هناك نوع آخر من التعليم هو التعليم الحرفى ، وكان فى بعض البلدان يتم من خلال نظام الطوائف ، حيث كان لكل حرفة " شيخ " يرأسها ، وكان نظام الطوائف محكما لا يلج إليه إلا من خبره ، فكل طائفة صفات وخصائص معينة وراثية فى أعضاء الطائفة ونريتهم إذ كانت الحرفة تنتقل من الأب إلى الإبن (١٨) بحيث يبقى ابن الحداد حدادا وابن النجار نجارا ، وهكذا .

وكان الملتحق بالحرفة يسمى " صبيا " يقضى فترة التلمذة فى كنف " المعلم " الذى كان عليه واجب تعليم الصبى الحرفة التى يزاولها ، ولكل معلم عدد من الصبيان ، ولم يكن يجوز له أن يتعداه . وتبلغ مدة تمرين الصبى فى بعض الأحيان سبع سنين ، يمضى بعد انقضائها امتحانا ليرتقى إلى مرتبة " العريف " (١٩) .

تحديث التعليم

هناك رسالة على درجة عالية من الأهمية تشير إلى نهج الحملة الفرنسية التى جاءت مصر والشام منذ عام ١٧٩٨ فى السعى لتحديث دول المنطقة وفقا للنموذج الأوروبى عامة والفرنسى بصفة خاصة ، وتمثل هذا النهج فى أمرين : أحدهما العمل على استمالة علماء الأزهر وإيهارهم ، والثانى :

العمل على تكوين عدد من المقيمين داخل فرنسا نفسها بحيث يعودون إلى المنطقة وقد تشربوا بنهج التحديث الأوربي .

بالنسبة للوسيلة الأولى نراها فى ما جاء برسالة لنابليون إلى " كليبر " نشرها أحمد حافظ عوض فى كتابه (فتح مصر الحديث) عام ١٩٢٥ (٢٠) ، حيث كتب يقول : " يجب أن تحذر روح التعصب وتتوهمها إلى أن تتمكن من استئصالها ، إذا حزت ثقة كبار مشايخ القاهرة ، فإنك تجمع حولك أفكار مصر بأجمعها ، وأفكار كل زعيم من زعماء الشعب " .

أما السبيل الآخر فيظهر من قوله فى الرسالة نفسها : " اجتهد فى جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخصا من الممالك حتى متى لاحت السفن الفرنسية تقبض عليهم فى القاهرة أو الأرياف وتسفرهم إلى فرنسا ، وإذا لم تجد عددا كافيا من الممالك ، فاستعض عنهم " برهائن " من العرب ومشايخ البلدان ، فإذا ما وصل هؤلاء إلى فرنسا يحجزون مدة سنة أو سنتين ، يشاهدون فى أثنائها عظمة الأمة (الفرنسية) ، ويعتادون على تقاليدنا ولغتنا ، ولما يعودون إلى مصر يكون لنا منهم حزب يُضن إليه غيرهم " (٢١) .

ولم يكن هذا هو الصوت الوحيد الذى بدأ يهز ما شاع فى الكتابات العربية عبر عقود عدة عن الدور التتويرى للحملة الفرنسية ، فهناك متخصصون فى الحضارة الفرنسية نشروا العديد من البراهين والأدلة التى تشكك فى صحة هذه المقولة (٢٢) .

على أية حال فقد وجد رجال الفكر والحكم فى المناطق العربية الخاضعة للدولة العثمانية أنفسهم أن هناك طريقتين لا ثالثة بينهما (٢٣) :

أ- إصلاح المعاهد التعليمية الموجودة - ولو بصورة تدريجية - بإدخال العلوم العقلية والنظم الحديثة .

ب- ترك هذه المعاهد القديمة جانبا وإنشاء معاهد تعليمية جديدة لتدريس العلوم العصرية وفق النظم الحديثة

وبفعل متغيرات متعددة ، تم اختيار البديل الثانى ، وأما الإقدام على إصلاح المدارس القديمة وإعادة تنظيمها على أسس جديدة ، فلم يبدأ إلا بعد مدة غير يسيرة ، وذلك بعد أن تنوعت وتكاثرت المدارس الجديدة وظهرت ثمارها للعيان ، فثبت تفوقها على المدارس القديمة .

ومن المثير للانتباه أن إنشاء المعاهد التعليمية الحديثة لم يتم وفقا للترتيب المنطقى من أول السلم التعليمى إلى أعلاه ، وإنما حكمت " الحاجة العملية " منطق السير .

ونظرا لما كانت الدولة العثمانية تواجهه ، دفعت الحاجة العملية أول ما دفعت ، إلى إنشاء معاهد عالية للتعليم العسكرى . بيد أن تعليم الفنون العسكرية كان مما يحتاج إلى معرفة شئ كثير من العلوم الرياضية والطبيعية ، وكذلك بعض المعارف التاريخية والجغرافية ، فاضطرت المدارس العسكرية أن تأخذ على عاتقها تعليم مثل هذه العلوم ، وبذلك دخلت العلوم العصرية ولايات الدولة العثمانية عن طريق هذه المدارس العسكرية (٢٤)

بيد أن أولى الأمر لاحظوا بعد فترة أن تعليم العلوم التى تتطلبها الفنون العسكرية يحتاج إلى مدة أطول من المدة المقررة لهذه المدارس المتخصصة ، فضلا عن إدراك أنه من الأوفق البدء بهذا التعليم من سن أبكر من سن الشباب التى تلائم الحياة العسكرية ، ومن هنا فقد تم إنشاء المدارس الإعدادية العسكرية لتزويد الشبيبة بالمعلومات الأساسية لتعلم الفنون العسكرية فى المدارس المتخصصة .

ثم رأوا بعد ذلك أن الأفضل زيادة التبكير فى هذا التعليم ، فأنشأوا المدارس الرشدية العسكرية لإعداد الطلاب لتعلم الدروس فى الإعداديات العسكرية .

ومن الملاحظ كذلك أن المدارس العسكرية العليا أنشئت فى عاصمة الدولة العثمانية وحدها ، وأما الإعداديات والرشديات العسكرية ، فقد توزعت على الولايات جميعا .

وأما المعاهد التعليمية التى لم يكن لها مثل هذا الطابع العسكرى والتى وصفت بأنها " ملكية " ، أى مدنية ، فإنها لم تنشأ إلا بعد مثيلاتها العسكرية بفترة ، أحيانا تقصر فى مناطق ، وتطول فى أخرى (٢٥) .

وفى العقد الأخير من القرن التاسع عشر كانت تشكيلات المدارس المدنية قد استقرت على الشكل الآتى (٢٦) :

- ١- مدارس ابتدائية ، مدة الدراسة بها ثلاث سنوات .
 - ٢- مدارس رشدية ، مدة الدراسة بها ثلاث سنوات .
 - ٣- مدارس إعدادية على نوعين (مرحلتين) : إعداديات الألوية ، ومدة الدراسة فيها خمس سنوات ، الثلاث الأولى فيها رشدية ، والثانية إعداديات الولايات ، مدة الدراسة فيها سبع سنوات ، الثلاث الأولى منها رشدية .
 - ٤- بجانب هذه السلسلة من المعاهد التعليمية العامة ، مدارس صناعية ومدارس زراعية ودور معلمين .
 - ٥- وفوق كل ذلك طائفة من المدارس العالية .
- وتمدنا إحصاءات وزارة المعارف العثمانية سنة ١٩١٥ بصورة رقمية عن عدد المدارس الابتدائية التى قامت فى الولايات العربية حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ :
- ١٨٥ فى ولاية حلب - ١٣٦ فى ولاية سوريا - ١٢٥ فى ولاية بيروت - ٩٦ فى ولاية اليمن - ٧٨ فى ولاية الحجاز - ٥١ فى ولاية الموصل - ٣٢ فى ولاية البصرة .

وبالنسبة للمدارس الثانوية ، فقد قام بالولايات العربية ١٢ مدرسة ، خمس منها فى درجة السلطانيات (فى مدن بيروت ، ودمشق ، وحلب ، وبغداد ، وكركوك) ، واثنان فى درجة إعداديات الألوية (القدس وطرابلس الشام) ، والبقية فى درجة إعداديات الولايات (٢٧) .

ووجدت مدرسة زراعية واحدة فى السليمية التابعة لمتصرفية حماه ، وثلاث مدارس عليا فى مراكز ثلاث من الولايات العربية : فى بغداد مدرسة الحقوق ، وفى دمشق مدرسة الطب ، وفى بيروت مدرسة الحقوق .
هذا عدا المدارس العسكرية سابق الإشارة إليها .

وأُسست " مدرسة العشائر " فى استانبول بغرض تعليم أبناء رؤساء العشائر تعليما خاصا يعدم لنقلد بعض المواقع العسكرية أو المدنية ، وغالبية طلابها من أبناء العرب .

وانشئت فى القدس " الكلية الصلاحية " - نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي - وهى وإن كانت ذات طابع دينى ، لكنها كانت تتضمن نظرة بها بعض التقدم . وواكبت حركة تحديث التعليم ، وأحيانا ما أسست لها ، تيارات فكرية تسعى إلى التجديد والتحديث ، مثل خير الدين التونسي (١٨٢٥-١٨٨٩) فى تونس ، من خلال كتابه أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك (المنشور فى تونس عام ١٨٦٨) (٢٨) .

ولما ولى حكم مصر محمد على شهدت المنطقة أكبر وأوسع عملية تحديث فى التعليم لم يرى أحد مث لها من قبل فقد كان الرجل ذا همة عالية وطموح واسع ، رغب أن يكون امبراطورية كبرى تكون ندا للدولة العثمانية ، ولكنير من الدول الأوروبية الكبرى ، وكان تحقيق هذه الآمال يعتمد بالضرورة على قوى بشرية حديثة فى مجالات مختلفة للحياة الحديثة ، مما كان يقتضى عملية تغيير واسعة النطاق فى الحياة العربية فى مصر .

وكانت المشكلة التي واجهت محمد على هي المصدر الذي سيستمد منه عناصر التغيير وعوامله : هل كان يمكن الاعتماد على ثقافة البلاد في التغيير وتكوين الجيل الذي سيقوم بالتغيير ؟ يذكر " باورنج " في تقريره عن مصر أن التعليم الذي كان يقوم به أساتذة العلوم الشرعية في المعاهد الدينية قليل الجدوى ، بل إنه ليهبط في مستواه حتى يبلغ من التفاهة حدّها الأقصى ٠٠ " (٢٩) .

وتحول الرجل من الفلسفة السياسية إلى الفلسفة التربوية ، إذ جعل مدخله إلى القوة المادية عن طريق القوة الفكرية ، وجعل وسيلته إلى ذلك معاهد العلم الحديث وكتبه ، بدلا من العادة والتقاليد ، وترتب على ذلك إنشاء نظام تعليم حديث لا تكون دراسة الدين فيه غاية لذاتها ، بل وسيلة إلى الإيمان والعقيدة التي لا تصد عن هذه الحياة وإنما تكون قوة دافعة تتضمن النجاح فيها ، ولا تكون دراسة اللغة غاية في ذاتها بل وسيلة إلى المعرفة الحقّة بعلوم الكون وعلوم الحياة بنظام يجمع إلى هذه اللغة وذاك الدين دراسات أخرى في العلوم الحديثة وفي الصناعة تكون قادرة على إيجاد ذلك الجيل القوى الذي يستطيع أن يحارب الاستعمار بأساليبه المختلفة (٣٠) .

والمستقرئ لمسيرة التعليم الحديث في هذه الفترة يستطيع أن يلمس كيف كان " بناء الدولة الحديثة " هو الموجه وهو الحاكم لكل ما يجري على الساحة التعليمية من إنشاء المدارس ليتعلم فيها عدد من أبناء البلاد والمقيمين فيها ، علوم الغرب وفنونه في صورة منظمة وافية ، فإذا احتاجت الحكومة إلى ضباط ، أنشأت المدارس الحربية ، وإلى أطباء أنشأت المدارس الطبية ، وإلى مهندسين أنشأت مدارس الهندسة ، وإلى زراة أنشأت مدارس الزراعة ، وإلى مترجمين وموظفين أنشأت الدرسخانة أو مدارس الإدارة والمحاسبة والألسن (٣١) .

ورأت الحكومة أن لابد لتلاميذ هذه المدارس من قدر كاف من التعليم قبل التحاقهم بها فأنشأت المدارس التجهيزية والابتدائية ، ومن هنا جاء رأى القائل بأن المدارس إنما أنشئت لسد حاجة الجيش والمصانع ودوائر الحكومة .

وفى معظم ما تم من جهود كان النفوذ الفرنسى قويا وواضحا ، فقد دعت ظروف مصر فى هذا العهد ومن خلاله إلى القيام عن رغبة عمدية وعن طواعية باستعارة النظم والأنماط بل والموظفين من فرنسا (٣٢) .

وفى الكلام عن عوامل النهضة الفكرية عند العرب فى القرن التاسع عشر وما ارتبط بها من قضايا فى شتى المجالات على مستوى المشرق العربى ، لا مفر من اعتبار أفكار السان سيمونيين - أتباع سان سيمون - وما تلاها من اتصال مستمر بين أوروبا والمشرق العربى عاملا مهما وأساسيا فى تكوين الأفكار السياسية والاجتماعية بالمعنى الحديث فى هذه المنطقة ، فالسان سيمونيون لعبوا دورا رئيسيا فى النهضة العربية وتركوا أثرا عميقا فى حركة التحديث العربى (٣٣) .

ويعود أثر السان سيمونيين فى مصر إلى عام ١٨٢٥ (٣٤) حين هاجر البعض منهم وقابلوا محمد على . والملفت للنظر أن أتباع سان سيمون بدل أن يذهبوا صوب القارة الأمريكية الجديدة ليبشروا بأفكار أسانذتهم اتجهوا نحو بعض مناطق المشرق العربى وبالتحديد مصر (٣٥) .

ولما فتح محمد على السودان ، بدأ من يرسلهم للعمل فيه ينقلون إليه بعض مظاهر التحديث ، ولعل أبرز ما يمكن الإشارة إليه هو إنشاء المدرسة الابتدائية بالخرطوم ، حيث كان رائدها هو أحد رواد التحديث فى الوطن العربى ألا وهو رفاعة الطهطاوى نفسه ، وكان ذلك فى عصر عباس الأول ، وإن أقفلت فى عهد سعيد الذى جاء بعده . ولا شك أن وجود الطهطاوى كان له بعض الأثر فى الشريحة المتعلمة فى السودان آنذاك (٣٦) .

وعرفت ليبيا نوعا حديثا من المدارس فى العهد العثمانى كانت تسمى المدارس الرشدية ، وكانت أول مدرسة من هذا النوع قد تأسست عام ١٨٥٧ فى عهد ولاية الوالى العثمانى أحمد عزت باشا الأولى ، وقد أسس من هذا النوع الرشدى مدرستان : واحدة فى طرابلس والأخرى فى بنغازى ، وكانت هذه المدرسة عسكرية ، كانت تقبل التلاميذ من سن ٨ إلى ١٢ ، أى أنها كانت توازى السنوات الأخيرة من المرحلة الابتدائية الحالية وأوائل الإعدادية (٣٧) .

أما المدارس الرشدية المدنية ، فقد تأسست فى ليبيا كما تأسست فى غيرها من ولايات الدولة العثمانية ، استجابة للحاجة الماسة إلى اتباع منهج تعليمى جديد يتفق وروح العصر والإمام ببعض العلوم العصرية التى لم تكن المعاهد الدينية تعنى بها ، ثم تعليم اللغة التركية التى كانت لغة الإدارة فى البلاد ، وقد أنشئ من هذه المدارس خمس فقط فى كافة مناطق ليبيا (٣٨) .

وأنشئت فى مكة المكرمة أول مدرسة تحضيرية (أولية) سميت مدرسة " المسعى " فى أوائل القرن العشرين (١٣٣٠هـ) ، سميت الرحمانية فيما بعد ، بعد أن صارت ابتدائية ، وكانت الدراسة الابتدائية على مرحلتين : التحضيرية ، ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات ، والمرحلة الابتدائية ومدتها أربع سنوات (٣٩) .

ومن الصعب وصف ما كان يتم من تعليم بهذه المدرسة بأنه سار على نهج " التحديث " ، فقد كان التوجه الدينى بشكله التقليدى هو المسيطر فى تلك الفترة .

وفى عهد ولاية حسين حلمى باشا على اليمن فى سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٥م) أسست إدارة المعارف والمكاتب (مدارس ابتدائية) ودار المعلمين التى قام التعليم فى عهد الإمام يحيى على خريجها ، ومكتب الصنائع (مدرسة صناعية) والإعدادية ، وكان هذا الوالى يقرب أهل العلم والفضل وأجبر الناس على التعليم فيها (٤٠)

ومن المدارس التى افتتحها حسن حلمى بصنعاء " المدرسة الرشدية " (٤١) لتخريج الموظفين ولإعداد الراغبين فى الترقى إلى " دار المعلمين " ، وكان الرشدية مخصصة لأبناء الذوات من الأتراك واليمنيين .
ولعل أبرز خطوة نحو التحديث تمت بيد وطنية هى تلك الخطوة التى أسفرت عن إنشاء جامعة أهلية فى مصر عام ١٩٠٨ ، وكان من أسس قيام هذه الجامعة ما نص عليه بيان إنشائها من (٤٢) :

- ١- أن الجامعة مدرسة علوم وآداب تفتح أبوابها لكل طالب علم ، مهما كان جنسه أو دينه .
- ٢- أنه ليس لها صبغة سياسية ، ولا علاقة لها برجال السياسة ، ولا المشتغلين بها ، فلا يدخل فى إدارتها ولا فى دروسها ما يمس بها على أى وجه (وكان هذا دفعا لمحاولات الاحتلال البريطانى تعويق ظهور الجامعة) .
- ٣- أن اشتمال الجامعة على درجات التعليم الثلاث (كما نادى بذلك مصطفى كامل ، أول من دعا إلى قيام الجامعة) ، هى العالى والتجهيزى ، والابتدائى متعذر الآن ، ولابد من التدرج فى تنفيذ المشروع ، والبدء فيه بما يمكن عمله ، وتقديم ما الحاجة ماسة إليه أشد من غيره .
- ٤- يلزم أن يكون للجامعة تلامذة خصوصيون ، وهم الذين يقيدون أسماءهم ويحصلون على شهاداتها ، وتكون لهذه الشهادات قيمة أدبية ، مع الأمل أن الحكومة تمنحها المزايا التى تراها جديرة بها فى المستقبل ، كما يسمح لمن يريد حضور دروس الجامعة من غير تلامذتها الخصوصيين أن يحضر .

ولأن آثار التجديد والتحديث قد بدأت تؤتى أكلها فى نظام التعليم على النمط الأوروبى ، ، مع النظر بعين الاعتبار إلى سلبيات وعيوب شابت التجربة ، فإن

رياح التحديث والتجدي كانت لابد وأن تطول التعليم الدينى القائم ، وهذا ما بدأ علماء الأزهر يستشعرونه ، وإن كان ببطء شديد ، منذ عهد الخديوى إسماعيل ، كما نرى فى مذكرة الشيخ مصطفى العروسى ، ثم إذا بعجلة التجديد تسرع فى خطاها عندما أتيح للشيخ محمد عبده فرصة أن يكون مفتيا زمن الخديوى عباس حلمى . صحيح أن خطوة محمد عبده قد انتهت بانتكاسة ، لكن البذور التى وضعها قد أتيحت لها الفرصة فى فترة ذالاية أن تنمو وتزدهر ، ولكن ، أيضا ، بقدر من البطء ، بحكم مجال التخصص ، حيث خلط كثيرون بين تغيير وتطوير نظام تعليمى هو من صنع البشر ، وبين ما تصوره من أن هذا يمكن أن ينال الدين نفسه (٤٣) ، وهو خلط لم يبرأ منه كثيرون مع الأسف الشديد ، حتى فى أيامنا الحالية .

السياسات الاستعمارية :

وإذا كانت الكثرة الغالبة من الدول العربية قد وقعت فى براثن الاحتلال الأجنبى ، فقد كان من الطبيعى أن يمكن هذا الاحتلال لنفسه على أرض هذه البلاد ، لا عن طريق التواجد العسكرى - على أهميته - فحسب ، ولكن عن طريق الاحتلال السياسى والاقتصادى والثقافى ، وكان الطريق إلى ذلك هو العمل على تربية تخرج إلى الاستكانة والخنوع ، وأن يكون الاقتصاد اقتصادا متخلفا ، وأن يجمد المجتمع جمودا يعوقه عن الحركة والتطور ، وأن يحطم الثقافة القائمة وقيمها الأساسية لتستقبل الثقافة الاستعمارية فى أشكالها دون مضمونها ، وكان التعليم هو الوسيلة المهمة فى هذا المضمار (٤٤) .

ففى الجزائر على سبيل المثال ، ليس من الصعب على الباحث المتتبع لسياسة فرنسا فى الجزائر بصفة عامة وسياستها التعليمية بصفة خاصة ، أن يلاحظ أنها كانت لا تخفى أن أهدافها فى الجزائر هى تحقيق سياسة الفرنسة ، والاندماج ، والتجنيس ، على الجزائريين ، بحيث لم تحد عنها قيد أنملة طوال

فترة وجودها في الجزائر بدءاً من عام ١٨٣٠ ، حتى نيل الاستقلال . ولما عجزت عن فرض هذه السياسة بواسطة القوانين التي ألحقت بمقتضاها الجزائر بها واعتبرتها جزءاً منها ، جعلت من التعليم وسيلتها الأساسية لتحقيق هذا الهدف (٤٥) .

ومما يؤكد طابع الفرنسية والاندماج في سياسة فرنسا التعليمية أن اللغة العربية لم يكن لها وجود في التعليم الابتدائي الذي هو القاعدة الأساسية لجملة التعليم ، وفيه تتخلق شخصية الإنسان ، ومن المؤشرات الدالة على ما سعت إليه سلطات الاحتلال الفرنسي من محاربة للغة العربية باعتبارها الوسيلة الرئيسية لربط المواطن الجزائري بأصوله العربية الإسلامية ، ما جاء في أحد التعليمات التي صدرت في أوائل عهد الاحتلال عقب الشروع في تنظيم إدارة الجزائر ، ما يلي (٤٦) :

" إن إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة (مملكة فرنسية) إلا عندما تصبح لغتنا (الفرنسية) هناك لغة قومية ، والعمل الجبار الذي يترتب علينا إنجازه هو السعى وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي - بالتدريج - إلى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم الآن " .

وكان تاريخ الجزائر وجغرافيتها يدرسان لأبناء الجزائر في أقل من ثلاثة أسابيع طوال سنوات هذه المرحلة ، بينما يدرس تاريخ فرنسا وجغرافيتها طوال سنوات هذه المرحلة ، حتى يحفظ أطفال الجزائر عن ظهر قلب أسماء القرى ، والمدن والجبال والأنهار الفرنسية ، بينما يجهلون جغرافية بلادهم جهلاً يكاد أن يكون مطلقاً ، وفي الوقت الذي كانوا يجهلون تاريخ بلادهم العربي والإسلامي كنا نراهم ملمين إلماماً واسعاً بتفاصيل تاريخ فرنسا من نواحي عدة ، وفي مختلف العصور (٤٧) .

وعندما وجدت السلطات الفرنسية ضرورة إعداد بعض العاملين لشغل مواقع دينية إسلامية وقضائية ، وأنشأوا من أجل ذلك ثلاث مدارس " إسلامية "

حرصوا على أن تتضمن المرحلة الابتدائية ثمانى مقررات منها خمسة باللغة الفرنسية ، ثم مقررات فى اللغة العربية وآدابها - التوحيد - الفقه الإسلامى (٤٨) .

ولم تقتصر جهود الاحتلال على حرمان الجزائريين من دراسة تاريخهم بالقدر الكافى على المدارس فرنسية اللغة والخاضعة لإشرافه فقط ولكنه عمل إلى جانب ذلك على منع تدريسه لهم فى المدارس والكتاتيب القرآنية " الحرة " التى أقامها الشعب الجزائرى بتبرعاته الخاصة لتعليم أبنائه مبادئ اللغة العربية ، والدين الإسلامى ، والتاريخ الوطنى ، وفى عام ١٩٠٤ على سبيل المثال أصدر الاحتلال قانونا يحظر على الجزائريين فتح أية مدرسة أو كتاب قرآنى إلا بترخيص خاص من الإدارة (٤٩) .

وفى مصر نجد " دانلوب " الموجه الإنجليزى الأساسى لسياسة التعليم يذكر فى تقريره سنة ١٩٠٦ أن نظام التعليم السائد فى المدارس الحكومية ، لم يوضع بهدف مواجهة جميع حاجات البلاد فى مجال التعليم الابتدائى ، ولا يمكن اعتباره كذلك ، إن إحدى الحقائق المعترف بها هى أن هدفه هو إعداد فئات من المصريين للوظائف الحكومية المختلفة ، والمهن الفنية المختلفة على النمط الأوروبى (٥٠) .

وكان جوهر السياسة البريطانية فى مجال الثقافة ينصب على مضمون التعليم نفسه ، وسار الجهد فى اتجاهين : القضاء على الطابع الوطنى فى الثقافة المصرية من جهة ، وتحويلها فى اتجاه الارتداد إلى الوراء والنزوع إلى السلفية الجامدة من جهة أخرى (٥١) .

وحرصت سلطات الاحتلال على أن يكون التعليم باللغة الأجنبية ، وخاصة الإنجليزية ، كما صرح بذلك اللورد كرومر ل " أحد أقرانه الإنجليز : " لا يوجد تعليم جدير بهذه التسمية ، وخصوصا فى مجال العلوم الحديثة يمكن أن يحصل عليه المصريون إلا عن طريق إحدى اللغات الأوربية " (٥٢) .

وكانت سياسة كرومر تشجع على انتشار التعليم التقليدي المتمثل في الكتاتيب ، أما ما سمح به من مدارس حديثة فقد كان من مستوى متوسط يكفى لتخريج الكوادر المتوسطة التى يمكن أن تقوم بأعمال الخدمة الحكومية البسيطة ، على أساس أن المواقع العالية ، هناك من يشغلها من أبناء الإنجليز بصفة خاصة ، والأوربيين بصفة عامة ، ومن هنا فبإعمال كل من كرومر ودانلوب معاول الهدم فى القطاع الحديث - أى المدارس الابتدائية والثانوية والعليا - قد حال دون استمرار الفكر القومى والطابع العقلى والعلمى .

ولعل من أبرز الأدلة على ذلك هو ذلك الارتفاع المتوالى فى مصروفات المدارس الحديثة ، بعد أن كان التعليم فيها يتم بالمجان ، وكان فيلسوف التعليم المسابير لسياسة الاحتلال " يعقوب أرتين " يبرر خطوات بوصفه المجانية فى التعليم بأنها " شئ مخالف للذوق السليم ومناف للعدالة " ، ووصف ما كان قائما من مجانية وأثره على التعليم بقوله : " فإن كثرة هذا العدد (من التلاميذ الذين أقبلوا على التعليم الاحتلال) قد حولت المدارس عن حقيقتها وجعلتها أشبه بماوى . . . " (٥٣) .

وفى العراق نجد أن القوات البريطانية عندما احتلت ولاية البصرة ، أغلقت المدارس التى كانت قائمة فى العهد العثمانى أبوابها ، وعطلت الدراسة بها بسبب هذه الحرب ، وانسحاب معلميها مع القوات العثمانية المندحرة ، غير أن هذه الحرب لم تؤثر على المدارس الأجنبية القائمة فى البصرة ، وفى مقدمتها المدرسة الأمريكية (٥٤)

وتشير الوقائع إلى أن موقف السلطة المحتلة لم يكن موقفا مؤيدا للاهتمام بإعادة فتح المدارس فى الولاية ، إذ كانت تعتبر مثل هذه القضية من الأمور الثانوية التى لا يمكن أن تصرف لها ما يلزم من العناية لأن الوضع حينذاك كان يتطلب منها الانصراف إلى تلبية حاجات قواتها العسكرية والعمل على استتباب الأمن وحفظ النظام فى المنطقة ، ولما اشتدت حاجة سلطات الاحتلال

إلى موظفين ، وتواصل إلحاح الأهالي بفتح مدارس بدلا من ترك أبنائهم يتسكعون فى الطرقات ، لجأت إلى الدكتور " جون فانيس " مدير المدرسة الأمريكية تستعين به ، خاصة وقد كانت له خبرة طويلة بالمنطقة ، وكانت له معرفة جيدة باللغة العربية (٥٥) ، وقام الرجل بالفعل بفتح عدد محدود من المدارس .

وحتى نقف على توجه هذا الخبير الأمريكى نقرأ ما كتبه " السير أرنولد ولسن " ، الذى كان وكيل الحاكم الملكى العام فى العراق ، إذ كتب قائلا : " . . . وعلى حين كانت جنسيته (جون فانيس) ومهنته تتطلبان منه الوقوف موقف (الحياد) من الصراع الدائر ، لكنه وزوجته ، وأعضاء الإرسالية ، لعبوا دورا مشرفا إبان الحملة وقبلها وفيما بعدها " . ولا شك أن وصف دور الخبير الأمريكى وزوجته من قبل سلطة الاحتلال بأنه كان دورا مشرفا يستند إلى معيار المصلحة الإنجليزية بالدرجة الأولى ، لا العراقية .

ويعزز هذا الاحتمال قول أحد رجال التعليم العراقيين (عبد المجيد زيدان : معارفنا فى عهد الاحتلال ، جريدة الثورة ، فى ٨ / ٢ / ١٩٦٠) : " . . . وجون فانيس كان من أشد الناس حماسا لصداقة الإنكليز ، يحمل روحا تتاهض الروح العربية ، ويسعى لقتل الأمانى الوطنية ، ومع كل ذلك كان يتظاهر بصداقة العراقيين ، شأنه فى ذلك شأن رجال الساسة المستعمرين للوصول إلى مآربهم الاستعمارية " !

وكانت السياسة العثمانية تقوم على التفرقة الطائفية بين السنة والشيعة ، حيث كان العثمانيون من أهل السنة . وعندما احتل الإنجليز العراق ، بدأوا هم أيضا يحرصون على سياستهم الشهيرة " فرق تسد " ، فكانوا يطلبون من مدراء المدارس تسجيل الطلاب بحسب الأديان والمذاهب ، وقد طبعوا نسخا من " خلاصة الدوام الشهرى " مشيرة إلى هذا التقسيم ، وكانوا بين الفينة والفينة يسألون المدارس عن عدد طلاب السنة ، وعن عدد طلاب الشيعة من المسلمين

، وكان مديرو المدارس ينفرون من هذا التقسيم ، لأنهم يقصدون من وراء ذلك تثبيت وبث الروح الطائفية (٥٦) .

وكان فى العراق سنة ١٩١٩ (٧٥) مدرسة ابتدائية وألوية ، كان التعليم يتم باللغة العربية فى ست وخمسين مدرسة منها ، وباللغة التركية فى إحدى عشرة مدرسة لمصلحة القرى التركمانية المنتشرة على طول الحدود الشرقية ، وباللغة الكردية فى ست مدارس ، وفى مدرسة واحدة بلهجة تسمى " الشبك " الكردية التى تتكلم بها بعض القرى القريبة من الموصل ، وبالفارسية فى مدرسة أخرى . وكانت لغة التعليم فى مدارس السريان والكلدان الطائفية فى ولاية الموصل هى " الفلجى " أو السريانية الحديثة ، مع أن العربية كانت تدرس بوجه عام وتستعمل لغة للكتابة فى المدارس الأرقى من هذه (٥٧) .

وعندما غزت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١ ، سارت على منوال غيرها من الدول الاستعمارية ، مما دفع أحد السياسيين الإيطاليين إلى القول (٥٨) : " لقد امتلأنا مستعمرة فقيرة فقرا واضحا ، وليس من سياستنا استبدال الوطنيين بالطلّيان ، ولكن جعل الوطنيين يندمجون فى خططنا الاقتصادية ، وبالنسبة للمدارس فيجب أن نصل إلى الأسرة من خلال التلاميذ ، ويجب أن نتخلل القبائل بالتعليم " .

من هنا أخذ الإيطاليون يعملون منذ اللحظة الأولى التى وطئت أقدامهم أرض ليبيا للسيطرة على البلاد بطريقتين استعماريّتين هما : تشجيع الهجرة من إيطاليا إلى ليبيا ، وطلّينة الثقافة والتعليم حتى تضمن إيطاليا خضوع الليبيين وقبولهم لادعاء الاحتلال الإيطالى بأنه جاء لتمدين الشعب الليبي والتقدم به . وعلى هذا فقد توقفت جميع الجهود التعليمية التى بدأت فى ليبيا فى العهد العثماني توقفا تاما فى المناطق التى احتلها الإيطاليون والتى تتمثل فى المدن الساحلية ، أما بقية البلاد فقد تأثر التعليم فيها بدخول الإيطاليين الأراضى الليبية بانشغال المواطنين بأمر الجهاد ، إلا أن الكتاتيب بقيت تؤدى دورا تعليميا

محدودا ، وحتى الزوايا السنوسية سرعان ما تعرضت للإهمال والتدهور نتيجة انصراف القائمين إلى تنظيم حركة الجهاد (٥٩) .

وإزاء طول التخلف عن ركب التعليم ، بالإضافة إلى ما مارسه سلطات الاحتلال فى مختلف البقاع العربية ، نهض أفراد وجماعات وطنية تقيم مؤسسات تعليمية " أهلية " ، تتقاضى أجورا رمزية من الطلاب ، لتعوض بذلك النقص الحادث فى التعليم ، وأقدم المحاولات فى هذا الشأن ما كان يقوم به " عبد الله النديم " فى مدينة الإسكندرية قبل مجئ الاحتلال البريطانى ، وجهود الجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٨٩٢ ، وجمعية العروة الوثقى سنة ١٣٠٧هـ ، وجمعية التوفيق القبطية ، والمساعى المشكورة فى مصر (٦٠) .

وفى مكة المكرمة أنشأ أحد المهاجرين الهنود المدرسة الصولتية عام ١٨٧٢ (٦١) . وأغرى ما لاقته المدرسة الصولتية من نجاح عددا آخر من العلماء بتأسيس المدارس الأهلية ، حيث أنشئت المدرسة الفخرية عام ١٨٧٨ بمساعدة أغنياء هنود (٦٢) .

وفى العراق أسست مدرسة دار النجاح الأهلية (١٩١٩) فى الموصل ، ومن الجدير بالذكر أن المدرسة كان ظاهرها التدريس ، لكنها كانت تخفى من ورائها توجهها سياسيا مقاوما للاحتلال (٦٣) ، ومدرسة دار الإصلاح الأهلية ، والمدرسة الإسلامية الأهلية ، فى توقيت مقارب (٦٤) . وإذا كان هذا قد تم فى الموصل فقد شهدت بغداد التحرك نفسه على وجه التقريب .

التعليم الأجنبى :

إزاء حالة التخلف والجمود التى رانت على التعليم العربى فى معظم الأنحاء ، والضعف الواضح لمن كانوا يتولون أمر الحكم ، والوهن الذى كانت عليه الدولة العثمانية التى كان لها السيادة على معظم الدول العربية ، فضلا عن شراها واضحة تبنت لدى كثير من الدول الأوروبية فى إعادة تشكيل العقل

العربى بما يزيد من تمكنها الذى تم عسكريا وسياسيا ، لم تكثف الدول الأوروبية بما كان لها من توجيه وتسيير للسياسة التعليمية ، بل اندفعت فى حركة تغلغل فى أنحاء متفرقة ناشرة تعليمًا أجنبيا .

ولم يقتصر هذا التعليم الأجنبى على الدول التى قامت باحتلال عسكري ، إذا شاركت فى إقامته دول أخرى غير محتلة . كما لم يقف الأمر عند قطر عربى واحد ، بل انتشر هذا التعليم فى كل الأقطار ، إلا إذا استثنينا المملكة العربية السعودية بحكم الوضع الدينى لمنطقة الحجاز ، فضلا عن أن المناطق الأخرى لم تكن مغرية حتى أوائل القرن التاسع عشر لقيام مثل هذا النشاط . لكن كان من الواضح أن المنطقة التى استأثرت بأكبر عدد من المدارس الأجنبية هى مصر والشام ، وخاصة لبنان .

وكان للامتيازات التى منحتها الدولة العثمانية للجاليات الأجنبية فى القرن الثامن عشر أثرها الكبير فى تشجيع توفدها على البلدان العربية ، وبالتالي تشجيع وفود الجماعات الدينية من شتى أنحاء أوروبا وأمريكا ، وما تكاد الجماعة تستقر فى البلاد حتى تشرع من فورها فى فتح المدارس لأبناء الجالية ، وتستدعى المدرسين من الرهبان والراهبات (٦٥) .

وكانت المدارس الأجنبية فى ذلك العصر تتكون من نوعين من المؤسسات : مدارس الجاليات والطوائف الأجنبية ، ومدارس الإرساليات الدينية . وفى مصر بدأ النوع الأول على عهد محمد على حيث أنشئت مدرسة أرمنية عام ١٨٢٨ ، ومدرستان إسرائيليتان عرفتا بمدرستى القرم (١٨٤٠) ، ومدرستان يونانيتين ترجعان إلى أوائل القرن التاسع عشر ، وغير هذه وتلك (٦٦) .

أما بالنسبة للنوع الثانى ، فقد كانت الإرساليات الكاثوليكية من أسرع الإرساليات إلى القنوم إلى المنطقة ، وقد ساعد على وفودها أن التعليم عند الكاثوليك فى القرن الثامن عشر كان فى أيدي رجال الدين ، وبخاصة فى فرنسا

، وكانت فرنسا ، بناء على نظام الامتيازات الأجنبية ، حامية للكاتوليك فى الممتلكات العثمانية العربية ، وكان كاثوليك فرنسا يرون أن الطفل الكاثوليكي يجب أن يتلقى تعليمه على أيدى معلمين من رجال الدين الكاثوليك ، وقد أدت هذه الفكرة إلى رغبة كاثوليك العرب فى حضور هيئات دينية كاثوليكية أجنبية ليتلقى أبناؤهم العلم على أيديهم (٦٧) .

ولقد حدث فيما بين ١٨٠١-١٨٠٥ أن خرج التعليم فى فرنسا من أيدى رجال الدين وانتقل إلى الحكومة والجامعات تحت ظل " العلمنة " ، ومن ثم بدأ رجال الدين والهيئات والإرساليات الدينية يبحثون عن نشاط وميادين لهم خارج فرنسا ، وكان من أبرز هذه الإرساليات : الفرنسيسكان ، والجزويت ، والفرير ، والراعى الصالح ، والقلب المقدس ، وغيرها .

وكانت نشاط هذه الإرساليات قد بدأ بداية فعلية عام ١٨٣٤ حيث أنشأ الآباء العذارىون أول مدرسة للإرساليات الدينية بلبنان ، وبعد ذلك أنشئت أول مدرسة أجنبية كاثوليكية فى مصر هى مدرسة الراعى الصالح للبنات بالقاهرة فى عام ١٨٤٦ (٦٨) ، وتوالى إنشاء مدارس أخرى فى السنوات التالية .

وتبعت الإرسالية البروتستانتية الإرسالية الكاثوليكية ، عن طريق رجال دين إنجليز ، وآخرين أمريكيان . وقد بدأ انتشار المدارس البروتستانتية الأمريكية فى مصر بعد بداية الإنجليز الذين أنشأوا ثلاث مدارس بالقاهرة عام ١٨٤٠ ، ليتتابع نشاطهم بعد ذلك . وبدأ النشاط الأمريكى منذ عام ١٨٥٥ .

ومن الملاحظ على التعليم البروتستانى الأمريكى أمران : أولهما أنه كان يتجه إلى أكثر إلى المناطق الريفية ، وإلى الصعيد ، حيث الأرض بكر يستطيع أن يتغلغل فيها بسرعة ويسر ، ثانيهما أن الكنيسة القبطية المصرية كانت غير مرحبة بهذا النشاط حيث لوحظ سعى المدارس البروتستانتية لتحويل أبناء الأقباط المصريين من الأرثوذكسية إلى البروتستانتية .

ونشطت جاليات وإرساليات أخرى من شتى البلدان الأوروبية ، وقد مثلت المدارس الأجنبية ، فى كل منطقة عربية حلت بها " جيوبا ثقافية أجنبية " ، تشد إليها مواطنى كل دولة ، تعزلهم عن الرحم الثقافى العربى ، وتدخلهم الرحم الثقافى الأجنبى ، وفقا لجنسية كل مدرسة ، بل نكاد أن نقول إن هذه المدارس كانت " مستوطنات " أجنبية ، لا نكاد الدولة أن تراقب ما يتم بداخلها .

وفى العراق فإن أقدم مدرسة الأمريكان للبنين فى البصرة ، كما مر بنا ، وكانت تقدم تعليما متميزا ، قياسا لما كان قائما من تعليم متخلف ، مما جعلها قبلة كثيرين ، خاصة وأن رجال الأعمال كانوا يقبلون على خريجها ، وحرصت على اجتذاب عدد من الأطفال الفقراء (٦٩) .

كذلك أسست مدرسة أمريكية فى بغداد بعد ذلك بوقت قصير ، ولم يكن هذا إلا " مقدمة " تلتها خطوات أخرى نحو التكاثر المدرسى الأجنبى ، سواء أكان أمريكيا أم إنجليزيا .

وعلى أرض فلسطين نجد أن أول من أدخل التعليم العبرى فيها ، اليهود الأوربيون الذين وجهوا عنايتهم ليهود فلسطين ، وكان ذلك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حين كان عدد اليهود نحو ٢٥ ألفا على وجه التقريب ، وكان الذين يقومون بتأسيس المدارس الأفراد ، والجمعيات الإسرائيلية الخيرية ، والهيئات الإسرائيلية التى نشأت فى روسيا القيصرية فى العقد التاسع من القرن التاسع عشر ، وكانت ترمى إلى استعمار فلسطين ، وإحياء التقاليد اليهودية فيها (٧٠) .

وكان التعليم فى أكثر هذه المدارس بلغة البلاد التى ينتمى إليها مؤسسوها ، بيد أن بعضها أخذ يدرس المواد بالعبرية ، خصوصا تلك التى كانت ترعاها جمعيات روسية الأصل ، كالهوفيفى إسرائيل والبيلو ، التى كانت شديدة الاهتمام بإحياء العبرية . ولما كانت العبرية فى ذلك العهد لغة الطقوس الدينية وآدابها ، وليست لغة الكلام فى الحياة اليومية ، فإن إحياءها قد استلزم جهودا

جسارة ، فكان لابد من إعداد الكتب المدرسية بها ، وكان لابد من صوغ مصطلحات ومفردات عبرية تقابل مثلها من المصطلحات والمفردات الفنية العلمية ، قبل أن تكون تلك اللغة لغة تعليم . وكان من الطبيعي أن يصطدم محبزو التعليم بالعبرية - إن عاجلا أو آجلا - بأولئك الذين يدرسون باللغات الدارجة ، وكان من نتيجة هذا الصدام الذي ظهرت بوادره قبيل الحرب العالمية الأولى أن تشكل مجلس التعليم اليهودي " فاد هكنك " Vad Hachinuch ، واستولى في سنة ١٩١٤ على ١٢ مدرسة ، وجعل العبرية لغة التدريس فيها ، وتقاسم اليهود المستوطنون في الأرض المقدسة العبء المالي للإنفاق على هذه المدارس مع المؤسسات الصهيونية ، ومن هذه النواة نشأ النظام المدرسي الصهيوني في فلسطين (٧١) .

وقد تأسست الإرسالية اللعازرية القادمة من فرنسا في دمشق عام ١٧٥٥ ، وعقبها مدرستها بعد ذلك بعقدين من الزمان ، وأصبحت جزءا لا يتجزأ من الطائفة الكاثوليكية في دمشق . وشارك " الجزويت " كذلك في النشاط التعليمي ، حيث كان الآباء اليسوعيون أكثر الطوائف نشاطا ، فقد أسسوا أول إرسالياتهم في حلب سنة ١٦٢٨ ، فضلا عن مدارس فرنسية أنشأتها طوائف فرنسية علمانية في حلب وطرطوس ودمشق ، وكانت المدارس الفرنسية تتبع على الدوام تقريبا النظام الفرنسي بجانب قدر من المنهج الحكومي . وأسست الإرسالية المسيحية الإصلاحية لشمال أمريكا مدرستين للبنين والبنات عام ١٨٦٠ (٧٢) .

وكان لنشاط الإرساليات الفرنسية في لبنان تاريخ قديم العهد يرجع إلى القرن السابع عشر ، وقد مهد لدخول الإرساليات الكاثوليكية في لبنان وجود العدد الكبير من أفراد الطائفة المارونية التي كانت قد اعترفت بسلطة كنيسة روما قبل ذلك بأجيال .

وقد كان من عادة المرسلين أن ينشئوا مدرسة صغيرة في كل بقعة يحطون فيها رحالهم ويؤسسون فيها مركزا ، وكانوا في هذه المدارس يعنون بتعليم التلاميذ مبادئ القراءة والكتابة والحساب وأصول الإيمان والطقوس ، والفرنسية أو اللاتينية أحيانا ، وكانوا في الوقت نفسه يبعثون من الطلبة الأذكى إلى مدرسة اللاهوت للدراسات الشرقية في روما ، حيث يتلقون دراسات عالية في الفلسفة واللاهوت ، وقد أصبح بعضهم من العلماء ذائعي الصيت في هذه الدراسات .

وكان معظم نشاط الإرساليات دينيا في خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولم تبدأ توجيه عنايتها إلى التعليم سوى في القرن التاسع عشر ، ولعل كلية عنظورة كانت أول معهد أنشئ على النمط الحديث (٧٣) ، حيث أنشأها اللعازريون سنة ١٨٣٤ .

وقد رأى بعض الفرنسيين من غير رجال الدين أن نشاط الإرساليات الدينية لا يعطى فكرة صحيحة عن فرنسا في الخارج ، فأنشأوا إرسالية علمانية استهلت عملها بفتح مدرسة للبنين وأخرى للبنات في بيروت ، وكان ذلك عام ١٩٠٩ ، ثم أنشأت بعد ذلك مدارس أخرى في دمشق وحلب وطرطوس ، في سوريا . ولما كانت حكومة الانتداب الفرنسي شديدة الرغبة في نشر اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية ، وتربية جيل يتعاطف مع فرنسا ، ويؤيد احتلالها لسوريا ولبنان ، فإنها دأبت على تشجيع الإرساليات الفرنسية إلى حد كبير ، ومنحت إعانات لطوائفها المتعددة التي نشرت نشاطها في جميع أنحاء البلاد .

ولم يستقر نشاط الإرساليات الأمريكية والبريطانية البروتستانتية إلا بعد اضطرابات سنة ١٨٦٠ ، وبدأت تفتتح المدارس الواحدة تلو الأخرى بعد ذلك التاريخ ، على الأخص في لبنان . كما أنها أنشأت كذلك مدارس في سوريا ، في صيدا والقرى المجاورة ، وفي طرابلس والقرى المتطرفة على مقربة منها ، وجبال العلويين وفي شمالي سوريا وشرقها (وهذا يشمل لبنان) ، وقد كان

عدد هذه المدارس فى أواخر القرن التاسع عشر ١٢٢ مدرسة ، وكانت العناية فى ذلك الحين بتعليم البنات شديدة ، وفى كثير من الأنحاء كانت مدارس البنات تسبق مدارس البنين ، وفى كثير من القرى كان التعليم فى هذه المدارس مختلطاً بين الجنسين . وقد كان بعض هذه المدارس فى المدن داخلية (٧٤) .

ثم رأت الإرسالية المشيخية الأمريكية ، بعد عام ١٨٦٠ بصفة خاصة ، وفقاً لتعبير تقرير مجلس التعليم الأمريكى بواشنطن (ص ٦٢٨) الحاجة " إلى إنشاء كلية لإعداد الناشئين لتولى الزعامة فى حياة سوريا (تشمل لبنان فى ذلك الوقت) والشرق الأدنى " ، وبدأت بداية بسيطة بافتتاح فصول إعدادية سنة ١٨٦٣ ، ثم أول فصول الكلية عام ١٨٦٦ ، وسميت فى البداية الكلية البروتستانتية السورية ، ثم أخذت تتوسع فى أقسامها وتخصصاتها ، إلى أن أصبحت تعرف بالجامعة الأمريكية ببيروت .

وحتى نتبين مقدار التأثير الأجنبى على تعليم أبناء المنطقة (مصر وسوريا وفلسطين ولبنان) بصفة خاصة ، فلنتأمل ما يشير إليه تقرير مجلس التعليم الأمريكى من أن مدارس الإرساليات الأجنبية قد سبقت أية مدارس منظمة حكومية أنشأها الأتراك ، وقد أصبحت هذه المدارس بطبيعة الحال نموذجاً تتسج على منواله المدارس الحكومية والأهلية بعد ذلك . وقد كان النظام الحكومى للدولة العثمانية الذى تأسس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأصلح فى أوائل القرن العشرين ، كان هذا النظام نفسه متأثراً إلى درجة عالية بالطابع الغربى خصوصاً الفرنسى ، فلما أن أدخل نظام الانتداب فى كل من سوريا ولبنان وفلسطين ، أصبح للسلطات التعليمية البريطانية والفرنسية اليد العليا فى رسم خطط التعليم فى هذه الأقطار فى الفترة التى تلت الحرب العالمية الأولى . وفى سنة ١٩١٥ وضعت السلطات البريطانية أساس النظام التعليمى فى العراق ، وبعد ذلك نهض به رجال التربية من العراقيين أنفسهم ، الذين تأثروا بالتربية الغربية ، سواء الفرنسية أو الأمريكية (٧٥)

تعليم البنات :

كان الرأى العام فى كافة المناطق العربية شديد التأثير بالنسبة لتعليم البنات ، حيث لم يكن مهياً لتقبل خروج البنات إلى مدرسة ، إلى درجة أن محمدا عليا الذى لم يكن لينحنى بسهولة أمام ضجة الرأى العام ولا يهاب سخطه ، أبى الموافقة على ما أشار به مجلس معارفه الأعلى المنتشرب بالمبادئ الغربية والمقتنع بعظم تأثير أئمة المرأة المتعلمة على تربية أولادها ، على المجتمع ، من وجوب تعليم البنات وإنشاء مدارس لهن إسوة بمدارس الصبيان ، واكتفى بتعليم بنات أسرته وجواريهن على يد المسز ليدر زوجة أحد مبشرى الإنجليز ، التى أنشأت فى سنة ١٨٣٥ أول مدرسة أجنبية لتعليم البنات فى مصر ، بتشجيع من تلميذتها الهانم بنت محمد على الكبرى زوجة محرم بك أمير الأسطول المصرى ، ومحافظ ثغر الإسكندرية المسمى باسمه الحى المشهور فى هذه المدينة (٧٦) • ولما كان الناس - خاصة الأرستقراطيين منهم - على دين ملوكهم ، اقتدى بمحمد على الذوات والوجوه ، وبدأت تنتشر فى البلاد عادة استخدام الأرستقراطيين معلمات أجنبيات لتهديب بناتهم وتنقيف عقولهم •

غير أن محمد على لم يكن بالرجل الذى يهمل قيام أمر يعتقد هاما مفيدا لمجرد مخالفته لرأى ، وإذا لم يكن يرى صلاحية نفاذه وإجرائه مباشرة ، كان ينفذه من وجه غير محسوس ، فلكى يهز جمود المجتمع عن تربية بناته هذا يوقظه من نومه أتاها - بمشورة كلوت بك - من طريق صحى وأنشأ مدرسة قابلات •

ولم يكن الجمهور يرى فى الأمر بأسا ، بل رأى بالعكس ، أن تعليم النساء فن القبالة شيئا مستحبا ، ورأى القوم بعد ذلك من عمل الجوارى عقب خروجهن من المدرسة ما نهض بهن إلى مقام محمود وأغنى الأسرات التى طلبت مساعدتهن عن عمل الجاهلات من القوابل ، وأخذ الفقراء يرسلون بناتهم

إلى مدرسة كلوت بك بالقصر العيني ، حتى توطدت دعائمها وأصبحت على مر الأيام من المنشآت المقبولة (٧٧) .

وفى عهد إسماعيل ، نجد أنه أوعز إلى ثلاثة زوجاته تشسما آفت خانم ، بأن تكون أول مدرسة إسلامية تفتح فى مصر لتعليم البنات على الطريقة الغربية من عملها ، فاشترت الأميرة سراى قديمة بالسيفوية وجددت بناءها ، فصيرتها مدرسة وفتحت أبوابها للطالبات فى ربيع سنة ١٨٧٢ .

ولعل أول صوت ارتفع لينظر لتعليم البنات هو صوت رفاة الطهطاوى ، وذلك عندما طلب ديوان المدارس منه فى عهد الخديوى إسماعيل أن يعمل " كتابا فى الآداب والتربية ، يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية " (٧٨) ، فألف كتابه الشهير (المرشد الأمين للبنات والبنين) أسسه على نظر متقدم للأئشى ، خاصة إذا قيس بمستوى الثقافة التى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، ويكفى أن نتناول بعضا من الموضوعات التى كتب عنها بجرأة ظل مؤلفو الكتب المدرسية بعده يعقود عدة لا يجرأون على تناولها فى كتاب موجه إلى تلاميذ وتلميذات المدارس ، فمن ذلك ، مثلا : الكلام على المحبة والصداقة بين الزوجين وغير الزوجين - مذهب المحبين التمسك بعدم الشريك فى المحبة - الحب فى مبدئه اختياري ، وبعد ذلك يصير اضطراريا - العشق قسمان : عشق الحواس وعشق القلب - الحب يعمى بصيرة العاشق . - بادية العرب كانوا متفرغين للعشق بالذات ، لعدم اشتغالهم بالعوائق ، والفرس أيضا لهم رغبة فى العشق - للعشق مكارم أخلاق ، تنفرع عنه وتنسب - الحب ليس بمستكر فى الدنيا ولا بمحظور فى الشرع . إلخ .

وقدم رفاة الأدلة والبراهين التى تجعل من تعليم المرأة ضرورة ، على أساس ما للتعليم من أثر قوى فى إسعاد بيت الزوجية ، وحسن معاشرة الأزواج ، وكذلك فإن التعليم يكسب الفتاة آدابا ومعارفا يكون لها أثر إيجابى فى أخلاق

أولادها ، ولا ينس أن ينسبه إلى أن تعلم المرأة يتيح لها فرصة العمل ، إذا دفعته الحال إلى ذلك (٧٩) .

أما قاسم أمين ، فقد ذهب إلى مدى أبعد مما ذهب إليه الطهطاوى ، فقد ضمن كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) الكثير من الآراء التى تؤسس وتدعو إلى تعليم المرأة وإزالة العوائق التى تحول بينها وبين ذلك (٨٠) وخطت الجامعة المصرية الأهلية (١٩٠٨) خطوة تقدمية جريئة عندما استهلت عهدها بتخصيص قسم يقدم دراسات خاصة للنساء ومحاضرات عامة لهن ، وقد قسمت المحاضرات على النحو التالى (٨١):

١- محاضرات باللغة الفرنسية فى التربية والأخلاق قامت بإلقائها الأنسة كوفور المدرسة بمدرسة راسين بباريس .

٢- محاضرات باللغة العربية فى تاريخ مصر القديم والحديث ، ألقته نبوية موسى ناظرة مدرسة المعلمات .

٣- التدبير المنزلى ، وقامت بتدريسه رحمه صروف .

كما ألقى بعض الأطباء المصريين والأجانب محاضرات عامة على الطالبات فى الصحة العامة ورعاية الأطفال .

ولم تفتح مدرسة ثانوية رسمية للبنات فى مصر إلا عام ١٩٢٠ ، لكن هذا لم يمنع إحدى الرائدات (نبوية موسى) من أن تتقدم لامتحان الثانوية العامة سنة ١٩٠٧ ، لتكون أول فتاة تحصل على هذه الشهادة (٨٢) .

وبالإضافة إلى هذا النمط من تعليم البنات وفقا للنموذج الأوروبى الحديث ، فقد وجدت بعض الكتاتيب الخاصة بالبنات ، تطور أمرها لتصبح عام ١٩١٦ مدارس أولية مدة الدراسة بها أربع سنوات يدرس فيها القرآن الكريم واللغة العربية والدين والخط والحساب وتدبير الصحة والجغرافيا والرسم وأشغال الإبرة وأشغال الأطفال والتأمل فى مشاهد الطبيعة (٨٣) .

ولم ينل تعليم البنات فى ليبيا أثناء الحكم العثمانى اهتماما يذكر ، باستثناء جهود محدودة ، نذكر منها إنشاء مدرسة رشدية للبنات عام ١٨٩٨/١٨٩٩ كان الهدف منها منع بنات ضباط الحامية التركية من الالتحاق بالمدارس الأجنبية (٨٤) ، ومن ثم لم تكن مفتوحة لتعليم عموم البنات الليبيات .

وفى عام ١٩١٠ ، فى عهد ولاية إبراهيم باشا تأسست جمعية نسائية تحت اسم (جمعية النسوان العثمانية الخيرية نجمة الهلال) بحيث يكون مركزها بالمدرسة الرشدية للبنات ، وكان الغرض من تأسيسها تهيئة أمهات المستقبل بحيث تعمل على المساهمة فى تعليم البنات وتربيتهن .

وعلى العكس من ذلك كانت جهود الإرساليات الأجنبية بالنسبة لتعليم البنات ، ففي عام ١٨٤٦ استطاعت أخوات الراعى الصالح الكاثوليكية إنشاء مدرسة للبنات فى ليبيا اجتذبت إليها بنات من الديانات الثلاث : المسيحية ، والإسلام ، واليهودية ، ونجحن فى تكوين مجموعة من البنات بلغن ٦٠ تلميذة تعلمهن باللغة الإيطالية (٨٥) .

وفى عام ١٨٨٨ أنشأت الحكومة الإيطالية فى طرابلس مدرسة ابتدائية للبنات . ولما أنشأت مدرسة ثانوية فنية (صناعية وتجارية) ، كانت قاصرة فى بداية الأمر على البنين ، إلا أنها فتحت قسما للبنات بها عام ١٩٠٧ . . . إلى غير هذا وذاك من جهود أخرى لتعليم البنات ، حتى وصل عدد البنات فى المدارس الإيطالية فى عام ١٩٢٢/٢١ ما مجموعه ١٢٨٣ طالبة ، وهذا العدد زاد عن عدد البنين الذى كان ١٢٢٢ طالبا ، وفى مدارس العرب بلغ عددهن ١٤٢١ ، وفى مدارس الإرساليات بلغ عددهن ٤٦١ طالبة ، ووصل عدد البنات من اليهود ٤٦١ طالبة (٨٦) .

وشهد تعليم البنات فى العراق كذلك جهودا ملحوظة من جانب الأجانب بصفة خاصة ، سواء ضمن عمل الإرساليات الدينية أو غيرها ، فقد قامت قرينة الدكتور فانيس الذى أسس مدرسة أمريكية فى البصرة ، كما أشرنا من

قبل ، بتأسيس مدرسة أمريكية للبنات ، أثناء فترة الحرب العالمية الأولى ، فتحت بأربع طالبات فقط لكنها سرعان ما أخذت تذلل الصعوبات ، وأخذ عدد طالباتها بالتزايد ، وكانت الدروس فيها تتألف من : التدبير المنزلي ، ورعاية الطفل ، والصحة العامة والخياطة والتطريز (٨٧) .

وضمت بعض المدارس الأجنبية بنات ، بجانب البنين ، مثل مدرسة الراهبات الفرنسيات ، التي أنشأها ، أيضا في فترة الحرب العالمية الأولى ، الآباء الكرمليون بالبصرة ، وكان التعليم يجرى باللغة الفرنسية ، ثم أصبح باللغة الإنجليزية أثناء الاحتلال البريطاني . كذلك ضمت مدارس الكاثوليك ، أى مدارس اللاتين والأرمن والكلدان ، فى البصرة بنات ، بجانب البنين . وحتى عام ١٩٢٠/١٩٢١ وصل عدد مدارس البنات الأجنبية إلى ما يلى (٨٨) :

١- مدرسة الراهبات فى بغداد .

٢- مدرسة الأليانس فى بغداد

٣- مدرسة الأمريكان ، فى البصرة

٤- مدرسة الراهبات فى البصرة

٥- مدرسة الأليانس فى البصرة

٦- (٧) مدارس فى مدينة الموصل

٧- (٨) مدارس فى ضواحي الموصل (معظمها مختلطة) .

ولا يعنى هذا- أن العراق لم يشهد تعليما للبنات إلا على أيدي الأجانب ، فقد وجد عدد قليل لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة فى العهد العثمانى ، وقبل اندلاع الحرب العالمية الأولى . ومن دراسة تقارير الحكام السياسيين لسنة ١٩١٨ نلاحظ أن مدرسة القرنة الابتدائية تفتح صفا خاصا لتعليم الفتيات الصغيرات ضم بين جدرانه ثمانى طالبات ، وكانت كبرى البنات هى التى تعلمن القراءة

، لما لها من معرفة سابقة بالقراءة ، ويقوم مدير المدرسة ببعض الدروس ، إلا أن عدم وجود معلمات أدى إلى غلق هذا الصف بعد ذلك (٨٩) .

وشهدت مدينة كربلاء مدرسة للبنات سنة ١٩١٨ ، كان بها عشرون طالبة ، وفى العام نفسه افتتحت مدرسة أخرى لهن فى بغداد كان بها ستون طالبة ، وكانت الدراسة بها بسيطة تشمل قراءة القرآن والفروض الدينية ، ومبادئ القراءة والحساب وبعض الفنون المنزلية . ومن المؤسف أن السيدة التى كانت تقف وراء هذه المدرسة بجهودها لم تتل رضا الناس ، وتحديثها عنها حديثا غير طيب (٩٠) .

وكانت الخطوة المهمة هى تلك التى قامت بها السلطات الحكومية عام ١٩١٩ بالإعلان عن افتتاح مدرسة للإناث تديرها سيدة أجنبية ، داعية الناس إلى التقدم لها ، وتم افتتاحها بالفعل عام ١٩٢٠ .

وافتتحت أول مدرسة أولية للبنات فى السودان عام ١٩١١ ، فى رفاة موطن المربي السودانى الشيخ بابكر (٩١) بدرى ، وكانت نواتها كريماته ، وبنات بعض من اهتدى بهديه ، وقد بلغت مدارس البنات خمسا فى سنة ١٩٢٤

البعثات العلمية إلى أوروبا :

إذا كانت حركة التحديث قد استقرت على أن تكون قبلتها هى أوروبا بحكم قيادتها للنهوض الحضارى ، وإذا كان تأسيس نظام تعليمى وفقا للنموذج الأوروبى الحديث أحد الآليات المهمة على هذا الطريق ، وأن نفرا من الأوربيين الذين استقدمهم محمد على قد شاركوا فى هذه العملية ، إلا أن الرجل لم يكن يرى من الحكمة دوام الاعتماد على الأجانب وإبقاء أهل البلاد من المصريين أو الأتراك بمعزل عن الاشتراك فى إنهاض بلادهم والقيام على مرافقها . وقد رأينا أن محمد على كان يعهد إلى كثير من الأجانب بأن يعلموا فنونهم لنفر من أهل البلاد بعدهم ليخلفوهم على عملهم . ولكن محمد على كان - من جهة -

يُتَعَجَّل الوقت الذى يستطيع فيه أن يستغنى عن الأجانب ، ويرى - من جهة ثانية - أن أخذ المصريين عن الغربيين الذين يفدون إلى مصر لا يخلو فى كثير من الأحوال من نقص : فليس هؤلاء الغربيون بأكفأ من أنجبت بلادهم ، بل إن منهم كثيرين كانوا رحلا يسعون فى الأرض ، فضلا عن أن حرصهم على استمرار " رزقهم " لم يكن مما يجعلهم يتحمسون كثيرا لتعليم المصريين فنونهم (٩٢) .

ومن هنا فقد رأى محمد أن يأخذ عن الغرب مباشرة ، فبدأ يرسل إلى أوروبا نفرا من التلاميذ الأتراك والمصريين ليأخذوا مباشرة من علوم الغرب وفنونه ويحذقوا لغاته وتجاربه ، حتى إذا عادوا إلى مصر كانوا له أعوانا ومساعدين ، يقدّمهم إدارة المصانع والمدارس والدواوين ، ويجلسهم مجالس التعليم ، ويطلب منهم ترجمة الكتب النافعة ، أى يكونوا هم قادة النهضة الحديثة فى البلاد .

ففى عام ١٨٠٩ سافرت البعثات الأولى إلى إيطاليا لدراسة العلوم العسكرية وبناء السفن والطباعة وفنون الهندسة ، وبين عامى ١٨٠٩ و ١٨١٨ سافر ثمانية وعشرون إلى أوروبا ، وتوالى إرسال البعثات بعد ذلك ، ولم يبدأ التركيز على فرنسا إلا منذ عام ١٨٢٦ (٩٣) ، ويقدر باحثون تخصصات المبعوثين على النحو التالى (٩٤) : ٣٥% للعلوم العسكرية والبحرية ، ٢٧% للفنون الصناعية ، و ١٨% لفنون الهندسة ، و ٧% للطب ، و ٧% للإدارة والحقوق السياسية ، و ٤% للزراعة وعلومها ، و ٣% للعلوم والكيمياء .

وإلى عثمان نور الدين يرجع الفضل فى إيفاد بعثة سنة ١٨٢٦ الكبرى إلى باريس ، وذلك أنه اتصل أثناء تلقيه العلم فى فرنسا بالمسيو جومار Jomard ، أحد علماء الحملة الفرنسية وعضو المجمع العلمى الفرنسى ، فأعجب به جومار ، ثم تحدث إليه عن الوسائل التى يمكن بواسطتها إعادة الصلة العلمية بين فرنسا ومصر على أسس قوية وثيقة . ولقد اقترح عليه مسيو جومار أن

تفكر مصر فى إيفاد بعض تلاميذها لتلقى العلم فى فرنسا ، وحمل عثمان نور الدين هذه الرغبة إلى محمد على وظل يحبذها لديه حتى وافق ، وأرسلت البعثة الكبرى بالفعل إلى باريس ، وعهد إلى مسيو جومار بالإشراف عليها وعلى البعثات المصرية إلى فرنسا عموما (٩٥) .

وأظهر محمد على وعيا مدهشا فى حديث بينه وبين القنصل الإنجليزى " بورنج " بمدى ما يمكن أن تؤدى إليه البعثات من نهوض حضارى يعين على إزالة ما ران على البلاد من تخلف ، حيث ذكر الباشا للقنصل : " إن بلادكم ، أعنى إنجلترا ، إنما بلغت مكانتها الحالية بفضل جهود أجيال كثيرة ، وليس فى مقدور أية دولة أن تظفر دفعة واحدة نحو العظمة والازدهار ، ومع هذا فقد أدت لمصر بعض الشئ ، وبدأت أعمل على إصلاحها ، حتى إنه لمن الممكن أن نوازن من بعض الوجوه بينها وبين دول أوربية ، لا بينها وبين دول شرقية فحسب . إن أمامى وأمام شعبى شيئا كثيرا يجب تعلمه ، وقد أرسلت إليكم أدهم بك ومعه خمسة عشر شابا ليتعلموا ما تستطيع بلادكم أن تلقنهم إياه من العلوم ، وإن عليهم أن يروا بأعينهم ، ويعملوا بأيديهم ، ويتعرفوا أسرار صناعتكم ، كما أن عليهم أن يعرفوا كيف تفوقتم علينا وأسباب هذا التفوق ، حتى إذا أمضوا بين ظهرانيكم مدة كافية ، عادوا إلى بلادهم وتولوا تعليم شعبى (٩٦) .

ومن الأمور التى ينبغى لفت النظر إليها أن تلاميذ البعثات الصناعية جميعهم كانوا يتعلمون بجانبها أمورا مهمة ، منها ما هو مرتبط بالصنائع كالرياضيات والرسم ، ومنها ما له ارتباط باللغة الفرنسية ، فقد كانت العناية بهم فيها فائقة حتى كان كثير منهم يتلقى علم البيان فى هذه اللغة على أستاذ خاص (٩٧) .

وهكذا نلاحظ أن البعوث قد تركز على الجوانب العلمية والتكنولوجية فى الحضارة الأوروبية ، سواء فى المجالات الصناعية أو الطبية أو العسكرية ، ولم

تتجه إلى دراسات إنسانية إلا من حيث علوم وفنون الإدارة ، وكان هذا نكاه من محمد على ، حتى لا يتصادم الوافد الحضارى مع الموروث الحضارى .

وفى حفل كبير أقيم لطلاب البعثة الطبية فى باريس عام ١٨٣٢ ، تم فيه اختبار الطلاب ، وقف أحد أقطاب أقطاب باريس وهو البارون " ديويترن " خطيبا ، وكان مما جاء فى خطبته : " ٠٠٠إننا دعينا إلى هذه الحفلة لنشاهد ما اكتسبتموه بمدرستكم الطبية بمصر من العلوم وما نلتموه تحت ظلالها من النجاح ، وقد أبان تفوقكم أن مدرستكم أعادت لمصر شهرتها القديمة فى العلوم الطبية بعد ما أصابها الخمول والكسل ٠٠٠ " ، وقال أيضا (٩٨) : " ٠٠٠ فقد نطقتم بالصواب (يقصد نتيجة امتحانهم) وأجبت أحسن جواب بلغة غير لغة بلادكم مما دل على أنكم تعلمتم على أساس متين ، وقد جعل لنا هذا أملا دل فى أنكم ستحيون مجد أجدادكم العظماء من كبار الأطباء كابن سينا ، والرأزي وأبى القاسم وأنكم ستسيرون على منوالهم وتحيون آثارهم لتكونوا نعم الخلف لهؤلاء السلف " .

هذه الإشارة الزكية من البارون للفرنسى تبث فى طلاب البعثة الوعى بضرورة الاتصال بين تقدم علوم العصر وتقنياته ، وبين موروث الأمة الحضارى .

ولا شك أن هؤلاء المبعوثين عندما عادوا كانت لهم آثار متعددة سوف نعرض لبعض منها عندما نتناول القضية الخاصة بالترجمة والتأليف حيث كانوا هم العماد الأول للأميرين معا .

لكن من المهم فى الجزء الحالى أن نشير إلى أن هؤلاء المبعوثين تفتحت عيونهم وعقولهم فى أوربا على مشاهد لم يألفوا لها مثيلا فى بلادهم ، رأوا فى البلاد الأوربية دساتير تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ونشاطا فى كل ألوان الحياة ، وتقدما علميا وماديا غريبا عليهم ، والتفت معظم المبعوثين إلى تيار العلم المتدفق وكلهم حماسة لنهضة بلادهم (٩٩) .

وعندما عاد هؤلاء كانوا أول صلة حقيقية بين مصر وبين الثقافة الأوروبية في العصر الحديث ، حيث حملوا معهم بذور النهضة الحديثة وألقوها في التربة المصرية ، ثم ينتشر التعليم على نطاق شعبى فى القرى ، ويتكون " اتحاد الشبيبة المصرية " الذى يدعو الأفراد إلى فتح المدارس والتوسع فى التعليم الحر تخفيفا للعبء الملقى على الميزانية وسعيا وراء نشر الثقافة بين أبناء البلاد على نطاق واسع ، وتزدهر النهضة فى الناحيتين الثقافية والاجتماعية ، وذلك عن طريق انتشار الصحف مثل روضة المدارس التى ظهرت سنة ١٨٧٠ ، وصحيفة وادى النيل وأبو نظارة والوطن وغيرها (١٠٠) .

ومن الملاحظ أن جهود محمد على فى إرسال البعثات العلمية من أجل تحديث مصر استثار سلطان الدولة العثمانية محمود الثانى ، حتى إنه أرسل فى عام ١٨٢٧ بعثة تركية مؤلفة من ١٥٠ طالبا لعدة دول أوربية ، وبعد عدة سنوات ارتفع عدد طلاب البعثات حتى بلغ الآلاف ، وكان هذا من أسباب ظهور طائفة جديدة على المجتمع العثمانى كان لها دورها فى التطورات اللاحقة (١٠١) .

وفى خضم معمة البعثات العلمية ، ومن قلب الانتفاضات والتطلعات ، اندلع شرر الفكر الغربى ليلهب عقول عدد غير قليل من دعاة النهوض الحضارى فى البلدان العربية ، فتسابقوا سعيا إلى إرواء عطش جماهير الناس إلى العدل والحرية ، فكتبوا أروع المقالات الاجتماعية والسياسية والثقافية ، وكتبوا فى موضوعات مهمة ومفاهيم عصرية ، يعرضون البدائل العلمية ، ويعلمون من قيمة الإنسان وحقوقه (١٠٢) .

هذه الأفكار الإصلاحية سرت فى شريان المنطقة العربية والشرقية سريان النار فى الهشيم ، واستطاعت أن تصور الآلام المتكومة ، والأحلام المستترة ، المرتعدة أمام جبروت واقع ظالم لحكم استبدادى استغل وطغى وقال أنا ربكم الأعلى ، وإزاء نظام اجتماعى يقوم على التفاوت الطبقي الصارخ .

وحذا خلفاء محمد على حنوه فى إرسال البعثات التعليمية إلى البلدان الأوربية ، مع تقليل الأعداد من قبل عباس الأول وسعيد ، فأرسل الأول ٦١ طالبا ، وأرسل سعيد ٥٧ ، بينما أرسل إسماعيل باشا ١٦٢ فى مدة حكمه التى بلغت ١٦ عاما ، وأرسل توفيق باشا ٣٣ فيما بين ١٨٧٩-١٨٨٢ (١٠٣) .

لكن الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ شكل بداية انتكاس للبعثات ، وفى الفترة من ١٨٨٢ - ١٨٨٨ لم يرسل للدراسة بالخارج إلا ٩ طلاب ، وفى عام ١٨٨٨ قرر مجلس الوزراء ألا يرسل طلبة آخرون ليدرسوا على حساب الحكومة فى البلاد الأجنبية ، حتى ينخفض العدد الموجود بالخارج من قبل إلى (١٠) ، ثم بعد ذلك لا يرسل إلا إثتان سنويا ، وفى ذلك الوقت كان عدد الطلبة المصريين الذين يدرسون بالخارج على حسابهم الخاص أكثر من عدد من يدرسون على حساب الدولة ، وقد رأى المجلس أن المال الذى ينفق على البعثات ينبغى أن ينفق فى تيسير سبل التعليم فى الداخل (١٠٤) .

وكانت سنة ١٩٢١ أولى السنوات التى اقترحت فيها وزارة المعارف العراقية إرسال بعثات من الطلبة المتفوقين للدراسة خارج العراق ، وكان ذلك إثر قيام الحكومة الوطنية وتولى الملك فيصل الأول عرش العراق ، وقد وقع الاختيار فى ذلك الوقت على (٩) طلاب ذكور نابيين ، أرسل منهم ستة إلى الجامعة الأمريكية ببيروت ، وثلاثة إلى إنجلترا ، ومن هؤلاء تقرر أن يدرس اثتان الطب فى إنجلترا ، وواحد الهندسة (تقرر بعد ذلك إرساله إلى أمريكا) ، وستة لدراسة التربية والاستعداد للتدريس فى المدارس الثانوية ، وكان الغرض من هذه البعثات منذ البداية إعداد الإخصائيين للوفاء بحاجات البلاد ومطالبها من صحة وتربية وزراعة (١٠٥) .

ثم أخذت هذه الحاجات والمطالب تتضاعف وتتزايد ، إلى أن بغت هذه البعثات (٤٦) موزعة على شتى أنواع الدراسات ، منها العلوم على اختلاف أنواعها ، والمواد التى يقوم المعلمون بتدريسها . ومن الطلبة من أرسل

للتخصص فى علم النفس والتربية وطرق رياض الأطفال ، خصوصا إلى أمريكا . أما دراسة الزراعة فكانت بعثاتها كلها تقريبا إلى أمريكا ، ومنهم من أرسل للتخصص فى أنواع الهندسة من مساحة ومعمار ، ومنهم من درس العلوم الاجتماعية ، والطرق التجارية الحديثة ، والفلك ، وعلم طبقات الأرض ، والأرصاد الجوية ، والقانون (١٠٦) .

وفى سوريا كانت البعثات العلمية منذ الاحتلال الفرنسى عقب الحرب العالمية الأولى ، وحتى الحرب العالمية الثانية تكاد أن تكون مقصورة على فرنسا ، ولا غرابة فى ذلك بحكم وضعية الاحتلال ، الذى حرص على أن يكون مستشارو وزارة المعارف من الفرنسيين ، وكان التعليم السورى يحزو حنو التعليم الفرنسى فى أساليبه وآرائه ، وكان خريجو الجامعات والمعاهد الفرنسية يفضلون عن سواهم فى تقلد الوظائف فى وزارة المعارف ، ولم تكن هذه الحالة تختلف عنها فى سائر المصالح الحكومية ، ومن هنا نفهم لماذا تفضيل فرنسا كمقصد لطلاب البعثات ، حتى بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يسافرون على حسابهم الخاص (١٠٧) .

الترجمة والتأليف :

على الرغم من معرفة المنطقة العربية الترجمة والتأليف فى عصور الحضارة الإسلامية قبل دخول المطبعة ، لكننا نجد الأمر قد اختلف منذ بدأ الاتصال البطىء والتدريجى بالغرب منذ أواخر القرن السادس عشر بصفة خاصة ، إذ نجد الارتباط الوثيق بين وجود المطبعة وانتشارها وبين حركة الترجمة والتأليف .

وإن جميع الذين درسوا الحالة الثقافية فى لبنان فى تلك الحقبة من تاريخه يجزمون بأن التقدم الذى أصاب تلك البقعة من الشرق العربى إنما يعود إلى البعثات التى أرسلت إلى روما لتأتى بثمار جيدة بما نقلت إلى بلادها من علوم

وفنون ، وبما أنشأت من مدارس لتعليم اللبنانيين القراءة والكتابة ، وقد استطاعت تلك النخبة من الرهبان إقناع البطريرك الماروني بتأسيس أول مطبعة فى لبنان بدير قزحيا عام ١٦١٠ لتكون أول مطبعة فى المنطقة العربية ، وبإنشاء مدرسة سيدة حوقة الإكليريكية (١٠٨) .

كانت ميزة دخول المطبعة هو سرعة طبع الكتاب قياسا لما كان قائما من كتابة باليد ، ثم طبع عدة نسخ وتوزيعها ، مما كان له أثره فى ذىوع المعرفة بين أكبر عدد متاح ممن كانوا يعرفون القراءة والكتابة .

لكن هذه المطبعة الأولى لم تكن ذا أثر يذكر ، فقد كانت حروفها سريانية ، واختفت بعد وقت قليل لتظهر مطبعة عربية بدير ماريوحنا الصابغ بفضل الشماس عبد الله زاهر سنة ١٧٣٣ (١٠٩) ، وإن المتصفح لقائمة الكتب التى طبعت فى تلك الفترة منذ تأسيسها حتى سنة ١٨٣٤ يحكم على أن نشاطها كان ضعيفا ، مما يدل على أن الحالة الفكرية فى لبنان لم تكن تدعو إلى الإكثار من المطبوعات ، خاصة خلال القرن الثامن عشر ، حينما اقتصر إنتاج المطابع اللبنانية على الكتب الدينية المختلفة .

ولما رأى الأرثوذكس الفوائد العائدة من إنشاء مطبعة الكاثوليك ، سعى القديس جاورجيوس إلى إنشاء مطبعة تخدم طائفته الرومية الأرثوذكسية سنة ١٧٥١ ، وأول كتاب خرج منها هو كتاب " المزامير " (١١٠) ، وإن الدلائل كلها تشير إلى أن نشاط هذه المطبعة كان ضئيلا ، لكن أهم مطبعة عرفت لبنان هى المطبعة الأمريكية ببيروت سنة ١٨٣٤ ، وكانت قد أنشئت فى البداية عام ١٨٢٢ فى جزيرة مالطا ، وكان ذلك بجهود مجموعة من المبشرين البروتستانت الأمريكان (١١١) ، واستمرت المطبعة تزود لبنان وسوريا بالكتب المدرسية والعلمية والدينية ، كما ساهمت المطبعة فى نشر الصحف والمجلات ، فقامت فى سنة ١٨٥١ بطبع مجلة " مجموع فوائد " باللغة العربية ، وكان لها

الفضل أيضا في نشر أول صحيفة مصورة في الشرق العربي ، فأصدرت في سنة ١٨٦٣ صحيفة " أخبار عن انتشار الإنجيل " .

وكانت حلب قد شهدت مطبعة أنشأها " البطريرك " أنثاسيوس الثالث دباس " عام ١٧٠٦ ، وكان الرجل رجل أدب ، يحذق اللغتين العربية واليونانية ، ترجم عدة كتب مسيحية إلى العربية وطبعها في مطبعة حلب (١١٢) .

ورمى رجال الطائفتين الملكية الأرثوذكسية والكانثوليكية إلى تحقيق الأغراض الآتية حسبما ورد في مقدمة بواكير مطبوعاتهم (١١٣) :

- توفير الكتب الدينية للربان لأن المخطوطات كانت نادرة للغاية .
- تقديم الكتب التي تحتاج إليها الكنيسة باللغة العربية التي انتشرت انتشارا واسعا في تلك الفترة ، للتعويض عن اللغة اليونانية والسريانية في الكنائس السورية .
- جمع شتات الطائفة حول رواية واحدة للنص الديني والقضاء على الانحرافات .
- تعليم اللغة العربية للأطفال .

وعرفت الترجمة طريقها إلى مصر مع مجئ الحملة الفرنسية ، حيث صاحبته مطبعة خاصة بها ، وكان هناك نوعان من الترجمة (١١٤) : ترجمة رسمية ، وترجمة علمية ، فالحملة من الناحية الرسمية كان لها أثر في هذا النقل ، وكانت في أشد الحاجة إلى مترجمين دائمين ينقلون عنها الأوامر ، ويترجمون المنشورات ويسجلون محاضر الدواوين ، ويكونوا الوسطاء في نقل الحديث بين الحكام والمحكومين ، وكانت تستعين في ذلك بمترجمين من الشام في أغلب الأحوال .

أما الترجمة العلمية فقد قام بها المستشرقون من علماء الحملة الفرنسية ، يساعدهم نفر من المترجمين السوريين ، وإن كانت القلائل السياسية التي انتهت بإخراج الحملة من مصر لم تمكنهم من الاستمرار في أداء هذا الواجب (١١٥)

وعندما أنشئت مطبعة بولاق فى عهد محمد على فى سنة ١٨٢١ كان ذلك إيذانا بتحرك فعلى نحو التأليف والترجمة ، وكان من نتائج إنشائها نشر عدد هائل من الكتب المدرسية التى كانت توزع على تلاميذ المدارس وطلاب العلم على اختلاف فروع ومطالبه ، وهذا ما حدا بالبعض إلى التوهم بأنها أنشئت من أول الأمر لسد حاجة المدارس إلى الكتب ولطبع الكتب المدرسية خاصة ، ولم يكن هذا صحيحا ، حيث يشير استقراء قوائم مطبوعات المطبعة بأنها لم تقتصر على الكتب المدرسية فقط (١١٦) .

وإذا كانت مطبعة بولاق قد أنشئت سنة ١٨٢١ فإن أقدم مطبوع بها هو " قاموس إيطالى عربى " وطبع سنة ١٨٢٢ ، وقد ألفه القس روفائيل زخور راهب ، وفيما تلا هذه السنة ، وفى تلك السنوات المبكرة من القرن التاسع عشر نلاحظ غلبة للكتب المترجمة فى الشؤون الطبية والصحية ، والزراعة والهندسة ، وتبوير المعاش . نعم قد طبعت فى هذه الفترة المبكرة بعض الكتب فى العلوم النظرية ، فى فقه أبى حنيفة ، وفى علمى النحو والصرف والشعر والمعارف العامة ، لكنها كانت محدودة بالنسبة إلى الكتب المترجمة . على أن من أقدم ما طبعت بولاق من العلوم النظرية ، مجموعة متون الصرف ، مثل الشافيه لابن الحاجب ، والتصريف العزى - بعناية الشيخ حسن بن محمد العطار شيخ الأزهر ، وطبعة هذه المجموعة سنة ١٨٢٤ (١١٧) .

وإذا كان " بوجولات " الذى زار مصر سنة ١٨٣٠ قد عاب سياسة محمد على مع المطبعة لإصدارها كتب الحرب والطب ، وهى قليلة القراء ، فالحق أن الوالى طبعها وهو عالم بذلك وكان يقصد إليه قصدا ، لأن المطبعة نشأت لسد حاجة طوائف معينة إلى القراءة ، إذ هى نشأت خصيصا من أجل الجيش ، ثم من أجل المدارس ، وكانت مستقلة فى نشأتها عن الاعتماد فقط على القراء الهواة . إن محمد على لم يرم بطبع تلك الكتب أن يقرأها الناس جميعا ، أو أن تزدهم مكتبة المطبعة بطلاب الكتب ، وإنما قصد بها تنوير عدد قليل من الناس

، وعندما ينجاب عن هذا النفر القليل جهل العصور الوسطى يندفعون من أنفسهم أو بتكليف من الحكومة إلى تعليم غيرهم وبذلك يكثر القراء (١١٨) .
لقد كان محمد على فى أول أمره بالإصلاح كمؤنن يؤنن فى بلد كل أهلها كان يريد الإصلاح والشعب كله يقاومه ويفر من إصلاحاته فكان لابد له قبل أن يؤنن للناس جميعا أن يغرى أفرادا قلائل بالإسلام حتى إذا سمعوا آذانه وأقبلوا عليه كان فيهم إغراء لغيرهم !! (١١٨) .

وإن الذين قاموا على نشر كتب التراث بتلك المطبعة - بالإضافة إلى كم كبير من الكتب المدرسية - كانوا يستهدفون غاية ضخمة ، هى إبراز كنوز الفكر العربى والإسلامى ، فعمدوا إلى نشر الأمهات والأصول فى كل علم ، ولم يطغ فن على فن ، شأن المطابع ودور النشر التجارية التى تتحسس حاجة السوق ، وتلبى رغبات عاجلة لخدمة بعض الاتجاهات والنوازع ، فهم قد نظروا إلى التراث نظرة شمولية كلية ، فنشرت مطبعة بولاق : منهاج السنة النبوية لابن تيمية ، فى أربعة أجزاء ، ثم طبعت الفتوحات المكية لمحيى الدين بن عربى فى أربعة أجزاء أيضا ، وطبعت وفيات الأعيان لابن خلكان ، وتفسير الطبرى ٠٠ إلخ (١١٩) .

وقد اتجهت الترجمة فى عصر محمد على لخدمة المدارس ، والمصانع ، والجيش ، والإدارة الحكومية ، ولهذا نجد الكتب التى ترجمت تشمل العلوم والفنون التالية (١٢٠) :

١- الطب البشرى ، والطب البيطرى ، وما يتصل بهما من العلوم الطبيعية كالطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان ٠٠ إلخ مما كان يدرس فى مدارس الطب ، والطب البيطرى والصيدلة والزراعة .

٢- العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة وصفية ، وميكانيكا ، وهيدروليكا ، وحساب مثلثات ٠٠ إلخ مما كان يدرس فى مدارس الهندسة ، والمدارس الصناعية .

٣- العلوم الحربية والبحرية ،وما يتصل بها من فنون الرسم والعلوم الرياضية
مما كان يدرس فى المدارس الحربية والبحرية .

٤- العلوم الاجتماعية أو الأدبية كالتاريخ والجغرافيا ، والاجتماع والجيولوجيا
والفلسفة والمنطق .٠ إلخ مما كان يدرس أو يترجم فى مدرسة الألسن .
ثم خطا محمد على خطوة أعظم باستجابته إلى اقتراح رفاعة الطهطاوى
بإنشاء مدرسة متخصصة فى إعداد المترجمين ، فكان إنشاء مدرسة الألسن فى
عام ١٨٣٥ ، وكان تلاميذ المدرسة فى أول عهدها لا يتجاوزون ثمانين تلميذا ،
اختار رفاعة معظمهم من مكاتب الأقاليم ، وضم إليهم تلاميذ مدرسة الإدارة
الملكية بعد إلغائها ، ولكن هذا العدد زاد بعد ذلك حتى أصبح مائة وخمسين
تلميذا (١٢١) .

وإذا كانت المدرسة الألسن تعد المترجمين ، فقد تم إنشاء إدارة خاصة
تستقبل الخريجين وتعينهم بها حتى يقوموا بالترجمة ، أما هذه الإدارة فهى التى
عرفت باسم " قلم الترجمة " ، وكان هذا فى عام ١٨٤١ ، حيث ضمت هذه
الإدارة عدة أقسام كل منها مختص بترجمة نوعية معينة من الكتب الأجنبية إلى
اللغة العربية (١٢٢) .

وأدى التدهور الذى شهده التعليم فى عهدى عباس الأول وسعيد إلى تدهور
مماثل فى حركة الترجمة ، حيث أغلقت مدرسة الألسن (١٢٣) . ثم عادت
الترجمة والتأليف ليشهدا رواجاً ملحوظاً فى عهد الخديوى إسماعيل ، حيث كان
المبعوثون من قبل قد بدأوا ينتشرون فى مواقع مختلفة يؤلفون ويترجمون ،
وعادت مدرسة الألسن سنة ١٨٦٨ ، وإن كانت قد تقلبت فى أطوار مختلفة بعد
ذلك .

ومن المتغيرات الجديدة ، ظهور الصحافة ، وتزايد أعداد المتقنين الذين
أتوا من الشام إلى مصر نتيجة ما كانت تشهده الشام من تعسف من قبل سلطات
الحكم القائمة فى ذلك الوقت ، فظهرت صحف عدة ، لعل أبرزها جريدة

الأهرام المعروفة ، ومجلة الهلال ، والمقتطف ، وهاتان المجلتان - وهناك غيرهما - لعبتا دورا ملحوظا فى ترجمة الأفكار الأوربية الحديثة فى صورة مقالات ودراسات ، بعضها جمع فيما بعد فى صورة كتب ، ويكفى أن نشير هنا إلى كتابات شبلى شميل عن الأفكار الجديدة التى بثها أصحاب نظرية التطور وأنصارها .

ولمعت أسماء عدد من المترجمين العظام ، وكثير منهم لم يقف جهده عند حد الترجمة ، بل امتد إلى التأليف وكان أبرز هؤلاء بطبيعة الحال رفاة الطهطاوى ، والسيد صالح مجدى (باشا) المتوفى عام ١٨٨٨ ، من خريجي الألسن ، ومما ترجمه : رسالة فى الأرصاد الجوية من تأليف أراجو (١٢٤) ، وعبد الله أبو السعود ، وهو أول صحفى ظهر فى تاريخ مصر الحديث ، وتخرج من الألسن ، ومما ترجمه : (قناسة أهل العصر فى خلاصة تاريخ مصر) ، ويعرف بتاريخ قدماء المصريين ، تأليف أوغست مارييت (بك) ، ومحمد عثمان جلال المتوفى عام ١٨٩٨ ، واضع أساس القصة فى الأدب المصرى ، من تلاميذ الألسن وكان ميالا إلى الفن الروائى يجيد ترجمة مؤلفاته ، مع تمصير ما يترجمه أحيانا ، وكانت رواياته تمثل على المسارح المصرية (١٢٥) وغيرهم .

وقد أفادت حركة الترجمة اللغة العربية فائدتين ، مباشرة وغير مباشرة ، أما الفائدة المباشرة فكانت بنقل الكتب الكثيرة فى العلم والفنون المختلفة إليها . وأما الفائدة غير المباشرة فكانت العناية بالقواميس الأجنبية والعربية جميعا ، وضاعف من هاتين الفائدةين وجود المطبعة ، فإن طبع آلاف النسخ من هذه الكتب والقواميس ساعد على انتشارها وتداولها بين أكبر عدد ممكن من القراء ، وبهذا بدأت اللغة العربية أولى خطواتها فى سبيل النهضة الجديدة ، فأخذ الأسلوب ينطلق شيئا فشيئا من قيوده البديعية القديمة ، ويصطنع لنفسه طرقا جديدة يعنى فيها بالمعنى أكثر من عنايته باللفظ ، وبالجواهر دون العرض ،

ومنذ ذلك الوقت خطت الثقافة العربية نحو النهوض باللغة العربية قوام هذه الثقافة (١٢٦) .

وقد عرفت الجزيرة العربية الطباعة عام ١٨٧٢ فى اليمن أو ١٨٧٧ ، وقد اقتصررت على إصدار جريدة صنعاء وتسعة أعداد من سالنامة ولاية اليمن ، وكتاب واحد مترجم إلى التركية ، وهو ما يعنى أن تركيز مطبعة اليمن كان على الأعمال الموجهة إلى العاملين فى الإدارة العثمانية ، دون اهتمام بتطوير ثقافة السكان المحليين ، وبالتالي لم يصدر عنها أى كتاب عربى فى القرن التاسع عشر (١٢٧) .

وبدأت مطبعة مكة فى العام ١٨٨٣ ، وقد اهتمت منذ البداية بطباعة الكتب ، حيث وصل ما طبعته إلى عام ١٨٨٥ قرابة ٥٩ عنوانا ، وكانت تنشر كتباً فى اللغات العربية والتركية والجاوية الملاوية .

ورغم حداثة مطبعة مكة فإن مجموع ما طبع فيها مثل ٩٤% من مجموع ما طبع فى شبه الجزيرة العربية حتى أواخر القرن التاسع عشر ، فى حين كان نصيب مطبعة صنعاء ٦% فقط .

ويظهر أن موضوعات المطبوعات قد غلب عليها الطابع الدينى ، إذ بلغ عددها ١٠٥ عنوانا ، مثلت نسبة ٦٧% ، ثم اللغة والأدب بـ ١٧ عنوانا ، نسبتها ١١% ، و ١٥ عنوانا فى المعارف العامة ، نسبتها ١٠% ، أربعة عشر عنوانا منها تخص سالنانات اليمن والحجاز ، تسعة لليمن ، وخمسة للحجاز ، ثم التاريخ ١٠ عناوين ، نسبتها ٦% ، والعلوم ٦ عناوين ، تمثل ٤% و ٣ عناوين فى المنطق نسبتها ٢% ، وتوضح هذه الاتجاهات غلبة موضوعات الدين واللغة والأدب التى تشكل فى مجموعها ١٢٢ عنوانا (١٢٨) .

وأكد باحثون على قيام المطبعة الماجدية فى مكة سنة ١٩٠٩ ، ومطبعة شمس الحقيقة ، كما أسست بجده فى العام نفسه مطبعة الإصلاح . وفى سنة

١٩١٠ أنشئت في المدينة المنورة المطبعة العلمية ، وقد أسهمت هذه المطابع مع مطبعة الولاية في إنعاش الحركة الفكرية في ولاية الحجاز (١٢٩) .
وشاء الله أن يكون الفضل في دخول أول مطبعة عربية إلى المغرب لمواطن مغربي هو الفقيه السيد الطيب الروداني قاضي مدينة تارودانت في جنوب المغرب ، ففي عودته من الحج عام ١٢٨٠هـ مر بمصر - كدأب المغاربة - واستطاع أن يتفق من مطبعي مصري ذهب معه إلى المغرب حيث أسسا مطبعة عربية في مدينة مكناس وطبع فيها كتاب الشرائع للترمذي سنة ١٢٨٢هـ ، ثم نقلت إلى مدينة فاس وطبع فيها من سنة ١٨٦٥ إلى سنة ١٨٧١ ستة كتب فقط ، عرفنا منها الكتب الخمس التالية (١٣٠) :

١- الشرائع المحمدية للترمذي

٢- شرح الأجرومية للأزهري .

٣- شرح التحفة للتاودي

٤- شرح الخرشي الصغير على مختصر خليل

٥- قصيدة مولدية للسيد الرفاعي

فلم تكن هناك مطبوعات مؤلفة حديثا ، وإنما هي إعادة نشر لبعض كتب

التراث .

ثم مرت المطبعة بأطوار متعددة ، لكن من خلال إحصاء لبعض الباحثين

لإنتاج المطبعة نلاحظ ما يأتي (١٣١) :

١- معظم المطبوعات مصنفات تعليمية ، أي أنها كانت من الكتب الدراسية

في مراحل التعليم المختلفة .

٢- معظمها يرجع إلى الفقه والنحو والتوحيد والقراءات ، وهذه هي العلوم

التي كانت أساس التعليم في جامع القرويين بفاس .

٣- نصيب الأدب والتاريخ ضئيل ، ومثله نصيب العلوم ، فلا نجد في الأدب

ما يذكر إلا ما كان من محاضرات اليوسى وديوان ماء العينين ، ولا

نصادف فيما يمس التاريخ إلا الأنيس المطرب وإلا بعض كتب التراجم
مثل جنوة الاقتباس . أما العلوم ، فإذا استثنينا تحرير الأصول لإقليدس ،
وبعض كتب القصادى ، نجد أنها تكاد أن تكون معدومة .

٤- فى هذه المطبوعات كتب ورسائل تتصل بالتصوف ومناقب الأولياء .
ومما لا شك فيه أن كلا من التعليم ، والبعثات العلمية ، والطباعة ،
والترجمة والتأليف ، إنما هى مصادر متعددة تصب فى مصب واحد هو
الاستتارة المعرفية ، ولا يتقدم أحدها الآخر فى الأهمية ، فكل منها يعتمد
اعتمادا جوهريا على الآخر ، وإن كان يمكن ، بوجه ما النظر إلى التعليم على
أنه هو البينة الأساسية لهذه المنظومة المتكاملة ، مما دفعنا إلى أن يكون حديثنا
عن التعليم أكثر من غيره ، ومع هذا فهناك العديد من الجوانب التعليمية كان
من العسير استغراقها فى ظل الحيز الحالى .

الهوامش والمراجع

- ١- سعيد إسماعيل على : معاهد التربية الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ١٥٣ .
- ٢- خطاب عطية على : التعليم فى العصر الفاطمى الأول ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٧٣
- ٣- السيد الشحات أحمد حسن : تطور التعليم الدينى فى مصر (١٨٠٠م - ١٩٢٣) ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٢٥ .
- ٤- عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ط ٢ ، ص ٨٧
- ٥- عبد العزيز حسين : محاضرات عن المجتمع العربى بالكويت ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٦
- ٦- فوزية يوسف العبد الغفور : تطور التعليم فى الكويت ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٩٧٨ ، ص ٣٤ .
- ٧- رأفت غنيمى الشيخ : تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة ، دار التنمية للنشر والتوزيع ، بنى غازى ، ١٩٧٢ ، ص ١٠٧ .
- ٨- سعيد إسماعيل على : دور الأزهر فى السياسة المصرية ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٨٦ ، ص ٨٢ .
- ٩- عبد العزيز محمد الشناوى : الأزهر ، جامعا وجامعة ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ج ١ ، ص ٢٤١ .
- ١٠- جمال الدين الشيال : محاضرات فى الحركات الإصلاحية مراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى الحديث ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٩ .
- ١١- المرجع السابق ، ص ١٠

- ١٢- الفاسى ، العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، مطبعة السنة
المحمدية ، دوت ، القاهرة ، ج ٦ ، ص ١٣٠
- ١٣- عبد الرحمن صالح عبد الله : تاريخ التعليم فى مكة المكرمة
، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٤٤
- ١٤- تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ص ٨٨
- ١٥- تاريخ التعليم فى مكة المكرمة ، ص ٧٩
- ١٦- تطور التعليم فى ليبيا ، ص ٩٤
- ١٧- المرجع السابق ، ص ٩٥
- ١٨- محمد فهمى لهيطة : علم الاقتصاد للمصريين ، مطبعة
الاعتماد ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ص ٧٧
- ١٩- إميل فهمى شنودة : تاريخ التعليم الصناعى فى مصر حتى
ثورة يوليو ١٩٥٢ ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٦
- ٢٠- محمود محمد شاكر : رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ، دار
الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، القاهرة ، أكتوبر ١٩٨٧ ، ص ١٥٨
- ٢١- المرجع السابق ، ص ١٦٢
- ٢٢- ليلى عنان : الحملة الفرنسية على مصر ، دار الهلال ، سلسلة
كتاب الهلال ، القاهرة ، أكتوبر ١٩٩٨ ، جزء ٢ ، صفحات متفرقة .
- ٢٣- ساطع الحصرى : حولىة الثقافة العربية ، السنة الأولى ،
جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٤
- ٢٤- المرجع السابق ، ص ٥
- ٢٥- المرجع السابق ، ص ٦
- ٢٦- المرجع السابق ، ص ٧
- ٢٧- المرجع السابق ، ص ٩

- ٢٨- عزت قرنى : العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية الحديثة
، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم
المعرفة ، يونية ١٩٨٠ ، ص ١١٥
- ٢٩- محمد فؤاد شكرى وآخرون : بناء دولة مصر ، محمد على ،
دار الفكر العربى ، القاهرة ، ص ٦٤٤
- ٣٠- أبو الفتوح رضوان وآخرون : الكتاب المدرسى ، الأنجلو
المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٧٤
- ٣١- أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ،
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٣٥
- ٣٢- أنور عبد الملك : نهضة مصر ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ١٥٧
- ٣٣- رفيق سكرى : السان سيمونيون كرواد لعصر النهضة فى
مصر ، مجلة الفكر العربى ، معهد الإنماء العربى ، بيروت ، العددان
٤٠/٣٩ ، ١٩٨٥ ، ص ١٥٠
- ٣٤- على الدين هلال : التجديد فى الفكر السياسى المصرى
الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٥٥
- ٣٥- لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، للفكر
السياسى والاجتماعى ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، القاهرة ،
أبريل ١٩٦٩ ، ج ١ ، ص ١٨٧
- ٣٦- تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ص ١٢٠
- ٣٧- تطور التعليم فى ليبيا ، ص ١٤١
- ٣٨- المرجع السابق ، ص ١٤٥
- ٣٩- عبد الله عبد المجيد بغدادى : الإنطلاقة التعليمية فى المملكة
العربية السعودية ، دار الشروق ، جدة ، ١٩٨٤ ، م ٢ ، ص ٢٠٥

- ٤٠- العلامة عبد الواسع الواسعى : تاريخ اليمن ، المسمى فرجة
الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، المطبعة السلفية ومكتبتها ،
القاهرة ، ١٣٤٦هـ ، ص ١٧٥
- ٤١- على هود باعباد : التعليم فى الجمهورية العربية اليمنية ،
منشورات جامعة صنعاء ، ١٩٨٥ ، ط ٢ ، ص ٢٣
- ٤٢- رؤوف عباس أحمد : تاريخ جامعة القاهرة ، الهيئة المصرية
العامة للكتاب ، القاهرة ، سلسلة تاريخ المصريين ، ١٩٩٥ ، ص ٣٨
- ٤٣- دور الأزهر فى السياسة المصرية ، ص ١٩٤
- ٤٤- سعيد إسماعيل على ، تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، عالم
الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٤١٠
- ٤٥- تركى رابح : الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح
والتربية فى الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٤ ،
ط ٤ ، ص ١٣٣
- ٤٦- تركى رابح : التعليم القومى والشخصية الوطنية ، الشركة
الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٥ ، ص ١٠٦
- ٤٧- الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ص ١٣٤
- ٤٨- المرجع السابق ، ص ١٥٠
- ٤٩- التعليم القومى والشخصية الوطنية ، ص ١١٥
- ٥٠- نهضة مصر ، ص ٣٧٣
- ٥١- المرجع السابق ، ص ٣٨٠
- ٥٢- المرجع السابق ، ص ٣٨٥
- ٥٣- تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، ص ٤٢٨

- ٥٤- عبد الرزاق الهلالي : تاريخ التعليم فى العراق فى عهد الاحتلال البريطانى ١٩١٤-١٩٢١ ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص ٣٣ .
- ٥٥- المرجع السابق ، ص ٤١
- ٥٦- تاريخ التعليم فى العراق فى عهد الاحتلال البريطانى، ص ٧٦
- ٥٧- المرجع السابق ، ص ١١٩
- ٥٨- تطور التعليم فى ليبيا ، ص ١٨٧
- ٥٩- المرجع السابق ، ص ١٨٨
- ٦٠- تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، صفحات ٤٥٤ - ٤٥٦
- ٦١- محمد عبد الهادى : تطور التعليم فى المملكة العربية السعودية من عهد الملك عبد العزيز حتى الآن ، دار الطباعة الفنية ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ ، ص ١٧
- ٦٢- المرجع السابق ، ص ١٩
- ٦٣- غانم سعيد العبيدى : التعليم الأهلى فى العراق بمراحلتيه الابتدائية والثانوية ، تطوره ومشكلاته ، نقابة المعلمين ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٦٣
- ٦٤- المرجع السابق ، ص ٦٤
- ٦٥- نعيمة محمد عيد : اللغات الأجنبية ، دورها الثقافى فى المجتمع الجديد ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤٩
- ٦٦- نهضة مصر ، ص ١٦٣
- ٦٧- جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٣٧
- ٦٨- المرجع السابق ، ص ٤٢

٦٩- ماثيوز، رودرك ، وعقراوى ،متى : التربية فى الشرق الأوسط العربى ، ترجمة أمير بقطر ، مجلس التعليم الأمريكى بواشنطن ، ١٩٤٩ ، ص ٢٦٧

٧٠- المرجع السابق ، ص ٣٢٧

٧١- المرجع السابق ، الصفحة نفسها

٧٢- المرجع السابق ، ص ٥٢٣

٧٣- المرجع السابق ، ص ٦٠١

٧٤- المرجع السابق ، ص ٦٢٨

٧٥- المرجع السابق ، ص ٧٠٣

٧٦- تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، ص ٣٨٥

٧٧- المرجع السابق ، ص ٣٨٦

٧٨- أحمد أحمد بدوى : رفاة الطهطاوى بك ، لجنة البيان العربى

، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ١٤١

٧٩- المرجع السابق ، ص ٣١١

٨٠- سعيد إسماعيل على : دور التعليم المصرى فى النضال

الوطنى زمن الاحتلال البريطانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

سلسلة تاريخ المصريين ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٢٥٥ وما بعدها

٨١- تاريخ جامعة القاهرة ، ص ٤٢

٨٢- نبوية موسى : تاريخى بقلمى ، ملتقى المرأة والذاكرة ،

القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص ٨٥

٨٣- زينب محرز : تعليم الفتاة فى الجمهورية العربية المتحدة ،

وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٢٤

٨٤- تطور التعليم فى ليبيا ، ص ١٦٠

٨٥- المرجع السابق ، ص ١١٦

- ٨٦- المرجع السابق ، ص ٢١٣
- ٨٧- تاريخ التعليم فى العراق ، ص ٣٧
- ٨٨- المرجع السابق ، ص ١٧٦
- ٨٩- المرجع السابق ، ص ١٦٥
- ٩٠- المرجع السابق ، ص ١٦٦
- ٩١- تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ص ١٥٤ .
- ٩٢- أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على
ص ٤٢٢
- ٩٣- نهضة مصر ، ص ١٢٩
- ٩٤- المرجع السابق ، ص ١٣١
- ٩٥- مایسة على محمد : البعثات التعليمية فى القرن التاسع عشر
وأثارها الثقافية والاجتماعية على المجتمع المصرى ، رسالة دكتوراه ،
كلية البنات بجامعة عين شمس ، ١٩٨١ ، ص ٢٢
- ٩٦- بناء دولة مصر محمد على ، ١٩٤٨ ، ص ٦٩٠
- ٩٧- عمر طوسون : البعثات العلمية ، مطبعة صلاح الدين ،
الإسكندرية ، ١٩٣٤ ، ص ٧٣
- ٩٨- المرجع السابق ، ص ١٤٣
- ٩٩- محمد عبد الغنى حسن ، وعبد العزيز الدسوقي : روضة
المدارس ، نشأتها واتجاهاتها الأدبية والعلمية ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٢٥
- ١٠٠- تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، ص ٣٦٤
- ١٠١- خلف بن دبلان بن خضر الوديانى : الدولة العثمانية والغزو
الفكرى حتى عام ١٩٠٩ ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث
الإسلامى ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٩٩٦ ، ص ٣١٤

- ١٠٢- مننر معاليقى : معالم الفكر العربى فى عصر النهضة ، دار
إقرأ ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ٧٢ .
- ١٠٣- أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر : ١ عصر
عباس وسعيد ، ، ص ١٦٥ ٢٧٥ ، و ٢ عصر إسماعيل ، ٢ ص
٧٧٥ ، وزارة المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٥
- ١٠٤- المرجع السابق ، ٢ عصر إسماعيل ، ٢ ص ٥٩٧
- ١٠٥- التربية فى الشرق الأوسط العربى ، ص ٢٦١
- ١٠٦- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
- ١٠٧- المرجع السابق ، ص ٤٩٧
- ١٠٨- خليل صابات : تاريخ الطباعة فى الشرق العربى ، دار
المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٦ ، ص ٣٦
- ١٠٩- المرجع السابق ، ص ٣٩
- ١١٠- المرجع السابق ، ص ٤٤ .
- ١١١- المرجع السابق ، ص ٤٧
- ١١٢- وحيد قدورة : أوائل المطبوعات العربية فى تركيا وبلاد الشام
، فى : ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر ،
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ، دبی ، ١٩٩٦ ، ص ١٢٣
- ١١٣- المرجع السابق ، ص ١٣٤
- ١١٤- جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة
الفرنسية ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٠ ، ص ٣٦
- ١١٥- المرجع السابق ، ص ٦٥
- ١١٦- أبو الفتوح رضوان : تاريخ مطبعة بولاق ، المطبعة الأميرية
، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٣٠

- ١١٧- محمود الطناحى : أوائل المطبوعات العربية فى مصر ، فى :
ندوة تاريخ الطباعة فى القرن التاسع عشر ، ص ٣٥٨
- ١١٨- تاريخ مطبعة بولاق ، ص ٣٤٣
- ١١٩- محمود الطناحى ، ص ٣٥٩
- ١٢٠- جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر
محمد على ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ٤٥
- ١٢١- المرجع السابق ، ص ٣٩
- ١٢٢- المرجع السابق ، ص ٤٣
- ١٢٣- جاك تاجر : حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ،
دار المعارف ، القاهرة ، د٠ت ، ص ٧٧
- ١٢٤- المرجع السابق ، ص ١٠٠
- ١٢٥- المرجع السابق ، ص ١٠٣
- ١٢٦- تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، ص
٢٢٤
- ١٢٧- يحيى محمود بن جنيد الساعاتى : الطباعة فى شبه الجزيرة
العربية فى القرن التاسع عشر الميلادى، فى المرجع السابق ، ص ٢٧٤
- ١٢٨- المرجع السابق ، ص ٢٧٣
- ١٢٩- عبد الله بغدادى : الانطلاقة التعليمية ، ج ١ ، ١٩٢
- ١٣٠- محمد بن شريفة : حول تاريخ الطباعة العربية فى المغرب
العربى خلال القرن التاسع عشر ، فى : المرجع السابق ، ص ٢١٤
- ١٣١- المرجع السابق ، ص ٢١٧